الباب الأول

ما بين السبي والشتات

الفصل الأول

السبي البابلي
بين العهدين الكلداني والفارسي

العهد الكلداني

كان الآشوريون قد استطاعوا في عهد عاهلهم أسرحدون أن يمتدوا بإمبرطوريتهم على القارات القديمة الثلاث، فقد كانوا يسيطرون على كامل الشرق الأدنى القديم، كما أنهم وصلوا إلى شواطئ اليونان في القارة الأوربية، كما أخضعوا مصر كاملة، وبعض المناطق المتاخمة لها من شمال أفريقية، ولكن هذه الإمبراطورية التي لم يكن قد شهد لها التاريخ مثيلا من قبل، سرعان ما بدأت بالتفكك في عهد الملك آشور بني بعل (٦٦٩ - ٦٢٩ق.م)، وبدأت الأقاليم المترامية الأطراف تعلن تمردها، وقد قام البابليون الذين كانوا يستوطنون في جنوب بلاد الرافدين باستغلال الفرصة، حيث أعلن قائدهم نابوبولاصر (٦٢٥ - ٦٠٦ق.م) تمرده على الآشوريين، وفي سنة ٦١٤ قبل الميلاد استطاع، بالتحالف مع الميديين، تدمير العاصمة آشور، ثم وبعد سنتين احتل العاصمة الآشورية الثانية نينوى، ثم استطاع أن يشتت ما تبقى من الجيش الآشوري الذي كان قد تحصن في مدينة حران، كما أن قائد الجيش نبوخذ نصر استطاع نحو سنة ٦٠٦ قبل الميلاد دحر القوات المصرية في معركة كركميش، والتي كانت قد قدمت من مصر بقيادة نخو لنصرة حلفائهم الآشوريين، وهكذا سيطر البابليون على بلاد الرافدين، وفي قفزة نوعية استطاع الملك الكلداني نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ق.م) أن يمضي بقواته متجها نحو مصر، وفي طريقه أخضع الممالك السورية، ومنها مملكة يهوذا.

كان نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ق.م) قد قام بعدة حملات عسكرية، قبل، وبعد تربعه على العرش الملكي، منها ما نفذه على مملكة يهوذا التي سباها أربع مرات متوالية في غضون عشرين عاما، كان آخرها الدمار الكبير والأخير لتلك المملكة سنة ٥٨٦ قبل الميلاد، وكان قد ابتدأها سنة ٦٠٦ قبل الميلاد - حين كان يشارك والده الحكم - بحملة على مملكة يهوذا، والتي كان يحكمها حين ذاك يهوياكين (٥٩٨ - ٥٩٧ق.م)، حيث استولى من خلالها على كنوز الهيكل المقدس في أورشليم، كما أنه قام باقتياد عدد من الأسرى، كان من بينهم عائلة النبي دانيال الذي كان عمره قرابة الخمس سنوات، حسب ما يذهب إليه بعض المؤرخين التوراتيين، وفي سنة ٥٩٧ قبل الميلاد أعاد نبوخذ نصر الكرة ثانية، وأخذ يهوياكين أسيرا ومعه قرابة عشرة آلاف من الأسرى، وقام بتعيين صدقيا (٥٩٧ -

٥٨٦ق.م) ملكا بدلا عن يهوياكين، ولكن الملك الموالي لآشور صدقيا كان أسير خلافات سياسية تمثل تيارين، أو حزبين: الأول، يمكن تسميته بالمصري، وكان يحرّض، ويضغط على صدقيا من أجل التمرد على بابل والتحالف مع مصر، والتيار الثاني، يمكن تسميته بالبابلي، والذي كان يمثله النبي إرميا، الذي كان يرى أن خلاص محنة مملكة يهوذا لن يتحقق إلا بالخضوع والطاعة لملك بابل، وقد خضع صدقيا، بعد صراعات سياسية بين الحزبين، للتيار الموالي لمصر، فتآمر مع ملك مصر وتمرد على بابل، فما كان من نبوخذ ناصر إلا أن بعث بجيشه بقيادة نبوزردان إلى يهوذا وحاصرها، فهب فرعون مصر لنجدة حلفائه، فاضطر الكلدانيون إلى رفع الحصار عن أورشليم لمقابلته، ولكن الفرعون نكص عائدا دون الدخول في معركة خاسرة مع البابليين، فعاد نبوزردان إلى حصار يهوذا ثانية، وفي هذه الأثناء تم حبس النبي إرميا بتهمة الخيانة، وفي سنة ٥٨٦ قبل الميلاد سقطت أورشليم، وقام الجيش البابلي بتدميرها نهائيا في الرابع عشر من تموز سنة ٥٨٦ قبل الميلاد، وأُسر صدقيا الذي كان قد استطاع أن يتسلل من ثغرة في سور أورشليم، بعد أن انفض قادته من حوله، وقبض عليه في أريحا، واقتيد إلى ربلة في أرض حماة حيث يقيم نبوخذ ناصر، وبعد أن تم قتل أبناء صدقيا على مرأى من نظر صدقيا، سُملت عيناه بحضور ملك بابل نبوخذ ناصر، والذي أخذ معه ٨٣٢ أسيرا، وقد عين نبوخذ ناصر جدليا بن أخيقام والياً على من تبقى من الشعب في مملكة يهوذا، وجعل مقره في المصفاة، بعد أن أفرز له حامية بابلية، وهناك انضم النبي إرميا إلى جدليا، بعد أن قام كان البابليون قد فكوا أسره، وقد قام إسماعيل بن نثنيا من النسل الملكي بقتل جدليا، ثم التجأ ومن معه إلى بني عمون، ومن هناك وخوفا من الانتقام البابلي فر الجميع نحو مصر، وقد أخذوا معهم النبي إرميا، دون رضاه.

وفي سنة ٥٨١ قبل الميلاد عاد نبوزردان قائد جيش نبوخذ ناصر للمرة الرابعة على خرائب مملكة يهوذا، وأخذ منها ٧٤٥ أسيرا، وحسب سفر إرميا فإن الأسر تم على ثلاث دفعات:

الأولى	كانت في سنة ٥٩٧ قبل الميلاد	وكان عدد المسبيين	٢٠٢٣
والثانية	كانت في سنة ٥٨٩ قبل الميلاد	وتم سبي	٨٣٢
والثالثة	كانت في سنة ٥٨١ قبل الميلاد	وتم سبي	٧٤٥ نفساً

وبذلك يكون جملة النفوس: أربعة آلاف وست مئة

ولكن سفر الملوك الثاني يذكر أن نبوخذ ناصر كان قد سبى في سنة ٥٩٧ قبل الميلاد ثمانية آلاف إنسان من مملكة يهوذا.

وحكم بعد نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ق.م)، الذي كان العمود الفقاري للملكة البابلية الجديدة، خمسة ملوك تدرجت خلالها المملكة البابلية بالضعف والوهن، وكان أولهم أوبل مردوخ ابن نبوخذ ناصر، وآخرهم بلشاصر الذي كان يحكم باسم أبيه نبونيدس الذي ترك قصره في بابل، وذهب ليتعبد للقمر في مدينة تيماء، وفي النهاية سقطت الإمبراطورية مركزيا بسقوط بابل بيد الفرس بقادة قورش في سنة ٥٣٩ قبل الميلاد.

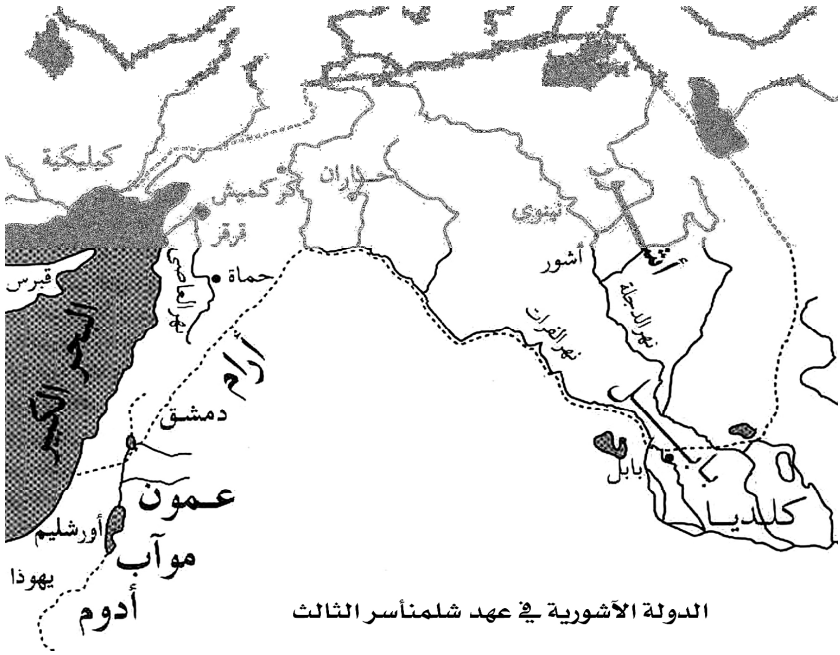

الدولة الآشورية في عهد شلمنأسر الثالث

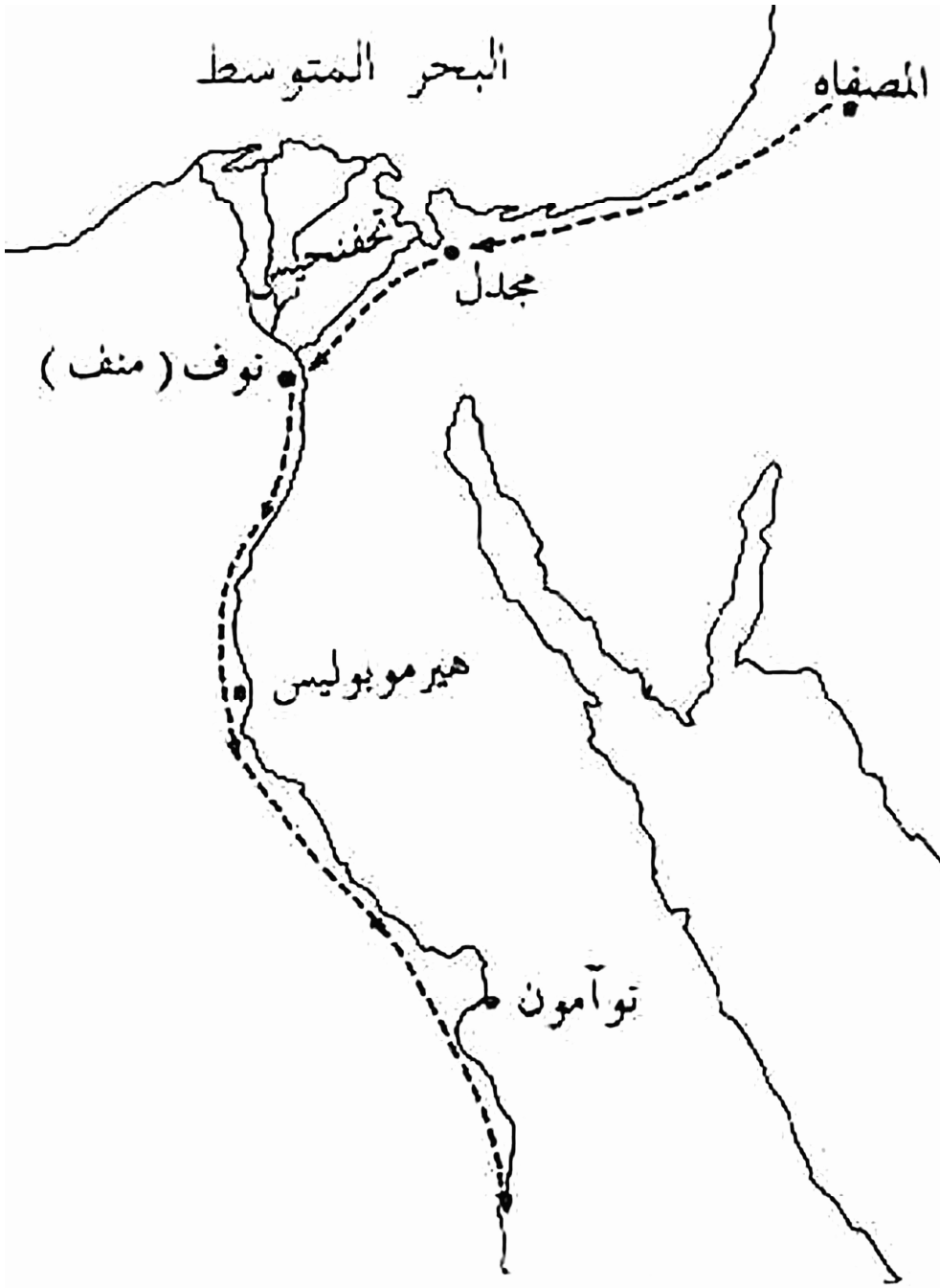

الهروب إلى مصر

العهد الفارسي

كان الميديون الإيرانيون الذين يعيشون على الضفة الشرقية من نهر دجلة، قد استطاعوا في سياق تلاشي الإمبراطورية الآشورية، أن يأخذوا استقلالهم، وأن يؤسسوا في حدود القرن السادس قبل الميلاد مملكتهم التي سريعا ما استطاع قورش (٥٣٩-٥٣٠ق.م) من ضمها إلى مملكة الفرس، وبدأ بأعماله العسكرية التوسعية، فاحتل أرمينيا، ثم اجتاح ليديا، وأخضع أسيا الصغرى، وبعد تلك الفورة التوسعية تفرغ لبلاد النهرين، وسريعا ما سقطت بيده بابل سنة ٥٣٩ قبل الميلاد، والتي كانت حينذاك تعاني من انهيارها الداخلي، ولذا لم تقاوم بابل، ولا ولايات بابل الجيش الفارسي الذي قوبل بالترحيب، والتهليل، لا سيما وأن الكثير من الجماعات في بابل كانت لهم مصالح في سقوطها بيد الفرس، ومنهم الكهنة التقليديون الذي كانوا قد هُمّشوا في نهاية العهد البابلي، وأيضا التجار الذين كانوا يبحثون عن إمبراطورية أوسع مما هي عليه لتوسيع سطوتهم التجارية، وكذلك الجاليات الأجنبية، ومنهم اليهود الذين إلى جانب أنهم جاليات مسبية كانوا أيضا تجارا لهم مصالحهم المادية في سقوط بابل، والذي كان قد وعدهم سنة ٥٣٧ق.م بعودتهم إلى بلادهم الأصلية.

ومن بعدها مضى قورش ليفتح آسيا الوسطى وهناك قتل سنة ٥٢٩ق.م في أحد المعارك، في الوقت الذي كانت فيه الأقاليم التي فتحتها القوات الفارسية تقوم بتمرد واسع، بتحريض من أخي قمبيز، ومن الكهنة المجوس الميديين.

وتولى الحكم من بعده قمبيز (٥٢٩ - ٥٢٢ق.م) الذي استطاع ان يحتل مصر سنة ٥٢٥ق.م، ولكنه اضطر للعودة نحو بلاد فارس لقمع التمرد في ميديا، وفي الطريق مات بشكل غامض، فأعلن برديا الميدي نفسه ملكا على فارس والذي قُتل سريعا في تمرد عليه، وتولى الحكم مباشرة داريوس الأول بن قمبيز (٥٢٢ - ٤٨٥ق.م) والذي عانى من تمرد مباشر عليه، إلا أنه استطاع قمعه بيد حديدية، ومباشرة، وفي عهد قصير، ومن خلال جيش منظم استطاع داريوس أن يصل بتلك الإمبراطورية إلى أقوى وأوسع إمبراطورية في العالم في ذلك الزمان، حيث امتدت حدود إمبراطوريته من بحر إيجة غربا إلى الهند شرقا، ومن مصر جنوبا حتى البحر الأسود وجبال القوقاز شمالا، ولم يكن من الفراغ أن لقب داريوس نفسه بـ (شاهنشاه) أي ملك الملوك، الأمر الذي قاد أعداءه من أبناء الجزر المتوسطية والشاطئ الشمالي أن يتوحدوا تحت قيادة واحدة هي قيادة أثينا، والذين انتصروا في البداية على الفرس في معركة مارثون سنة ٤٩٠ قبل الميلاد، كما استطاعوا، بعد موت داريوس بمدة، وفي معركة سلاميس سنة ٤٧٩ قبل الميلاد، أن يحرروا اليونان من حكم الفرس، وظل الصراع مستمرا مع تقدم بطيء لمصلحة الإيجيين عبر آسيا الصغرى، إلا أن مجيء الإسكندر المقدوني أحدث انعطافا حادا في الصراع الفارسي اليوناني، فقد استطاع الإسكندر المقدوني خلال فترة قصيرة أن يتقدم على حساب الإمبراطورية الفارسية، وأن يجتاح

المنطقة، ويحتل فلسطين سنة ٣٣٢ قبل الميلاد، وقد استطاعت قوات الاسكندر أن تستولي على بلاد الفرس نفسها، وأن تقتل داريوس الثالث سنة ٣٣٠ قبل الميلاد.

كان الفرس قد استطاعوا أن يصلوا بحدود إمبراطوريتهم إلى أقصى حدودها خلال مدة قصيرة جدا، وكان أحد أهم أسباب نجاحهم في هذا، هو نجاحهم في سياسة استيعاب المناطق التي يخضعونها لسيادتهم، بخاصة وأنهم لم يمارسوا العنف، والقسوة، والتدمير للأقاليم التي كانوا يقومون باحتلالها، وكانت إدارة الفرس ناجحة في إدارتها للأقاليم المحتلة، لأنها كانت تعطي هامشا واسعا للشعوب كي تمارس سيادة سياسية على أراضيها، كما أنهم لم يتدخلوا مطلقا في فرض العقائد الدينية، والتراثية على الشعوب.

وقد جعل الفرس من سورية وحدة إدارية مقرها في دمشق، كما قاموا بتقسيم بلاد كنعان إلى خمس مقاطعات هي: الجليل وعاصمتها حاصور، وسماريا وعاصمتها السامرة، ويهودا وعاصمتها أورشليم، وأدوميا (أدوم) وعاصمتها لخيش، وفينيقيا ولها عاصمتان هما مدينة صور، ومدينة وصيدا، وقد أعطوا ولاية فينيقيا استقلالا كاملا، أما عكا، وغزة، وأشدود، وعسقلان فقد بقيت تتمتع بحكم ذاتي.

وكانت سوريا قد خضعت للحكم الفارسي دون الدخول في أعمال عسكرية تدميرية، وقد أعلنت الأقاليم طاعتها للإمبراطورية الفارسية قبل أن يطلب منها ذلك بشكل عام، بسبب سقوط بابل مركزيا، وبذلك لم تتحقق نبوءات النبي إشعيا، والنبي إرميا بسقوط بابل والأقاليم السورية وتهديمها عن بكرة أبيها، أما بالنسبة لمدينة بابل تحديدا، فبدل أن يقوم الفرس بتهديمها، طوروا في بنائها وزادوا على معابدها، بل إن الفرس جعلوا منها عاصمة سياسية وتجارية ثانية لهم، كما أنهم أعطوا البلاد التي افتتحوها هامشا كبيرا من الاستقلالية الإدارية.

وبالمقابل، فإن الفرس لم يولوا المنطقة كبير اهتمام من حيث العمران والتحصينات المهمة، كما أن المنطقة عاشت بحالة من الفقر حالت دون تطوير بنيتها المعمارية الخاصة، كما أنهم لم يولوها اهتماما إداريا، ولم يتدخلوا كثيرا في الصراعات الشعوبية المحلية، بسبب انشغالهم بالصراعات الخارجية، بخاصة مع الشعوب الإيجية، وقد ترك الفرس البلاد الكنعانية لشؤونها المحلية، ولم يقوموا بالتدخل إلا إذا استدعت الضرورة، حيث اضطر الفرس للتدخل في الصراع الذي دار بين اليهود الذين عادوا من السبي إلى (الفردوس المفقود) على أجنحة ذكرياتهم الوهمية وأحلامهم المخملية، والشعوب والجماعات غير اليهودية، إضافة إلى الجماعات الأخرى من اليهود الذين لم يذهبوا مع السبي البابلي، وقد نشب هذا الخلاف إثر قيام اليهود بأعمال البناء والتحصينات الدفاعية في أورشليم، والسبب الرئيسي في نشوب هذا الصراع هو القيادات العنصرية اليهودية التي كانت في بابل، وعلى رأسهم عزرا، ونحميا، الذين جن جنونهم عندما قدموا إلى أورشليم، ووجدوا اليهود الذين لم يتم سبيهم، والذين عادوا من السبي أيضا قد امتزجوا مع شعوب وجماعات المنطقة في البوتقة الكنعانية، وقد طالب عزرا، ونحميا، وبحزم، أن يطلّق الرجال اليهود زوجاتهم غير اليهوديات، كما أنهما قاما بطرد الفئة السامرية (الإسرائيلية) التي رفضت المشاركة ببناء هيكل الرب، وما زالت هذه الفئة الصغيرة تعيش في السامرة إلى يومنا هذا، مرفوضة من قبل المجتمع

اليهودي، وهي الطائفة التي لا تعترف إلا بالأسفار الخمسة الأولى (التوراة)، التي يمتلكون نسخة قديمة منها يدّعون أنها أقدم نسخة في العالم.

وبشكل عام كانت الأقاليم السورية، في العهد الفارسي، تنعم بشيء ما من الهدوء، والانشغال بالمحليات، ولم تنشب صراعات عسكرية بين الأقاليم، كما لم تقم الأقاليم بتمردات على السلطة المركزية، باستثناء التمرد الفينيقي (٣٩٩ - ٣٩٣ق.م) الذي قامت بقيادته مدينة صيدا، وردا على ذلك قامت القوات الفارسية بمهاجمة المنطقة الفينيقية، وقد تحصّن أهل صيدا في مدينتهم، ولما أدركوا بأن المدينة ساقطة لا محالة، قاموا بانتحار جماعي بإشعال النار في المدينة بكل ما فيها، ة وقد مات حينها قرابة أربعين ألف شخص، حسب بعض المراجع.

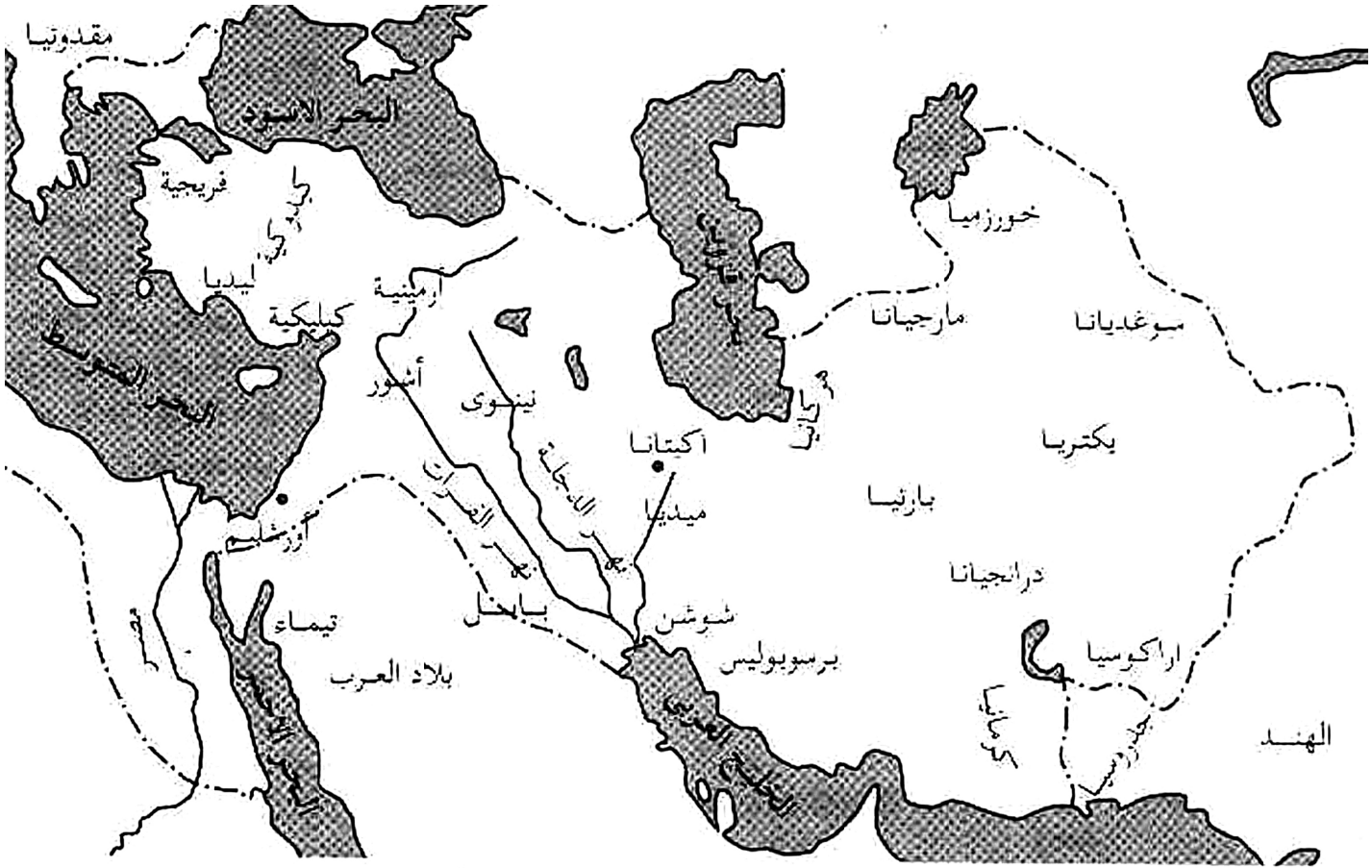

الإمبراطورية الفارسية في عهد داريوس الأول

السبي بين بابل، وأورشليم

كان الكلدانيون قد قاموا بتوطين اليهود الذي سبوهم من أورشليم، ومحيطها، في مدينة بابل، ونيبور ومحيطهما، وفي أماكن شديدة الخصوبة، وهي منطقة الدلتا الواقعة ما بين نهري دجلة والفرات قبيل اتحادهما، والتي تمر عبرها المسالك المائية التي تربط بين الفرات ودجلة بطريقة عرْضية (من الفرات إلى دجلة)، وكان أكبر تجمع للمسبيين من اليهود خارج بابل في مدينة (نهر دعة) الواقعة على المسلك المائي (نهر الملك) الثالث الذي يخرج من الفرات ويصب في دجلة.

وقد سمح البابليون لليهود أن يمارسوا طقوسهم وشعائرهم الدينية التي طوروها في السبي، كما أنهم انخرطوا في ممارسة كل النشاطات الحياتية، وبخاصة منها الزراعية، والتجارية المحلية والعالمية، ولهذا فقد عاش اليهود في الأسر البابلي حياة رغد على عكس المتوقع، وأثروا ثراء كبيرا، وقد تبوأ البعض منهم مناصب مهمة في نظام الحكم في بابل التي كانت تعج بالأثنيات المختلفة، والتي تنعم بحرية ممارسة نشاطاتهم المتنوعة، بخاصة وأن اليهود سريعا ما استطاعوا أن يتعايشوا مع حاضرهم الجديد، وأن يستفيدوا من التطور الحضاري في بابل، من ثقافة وآداب، ومن تطور في فنون الزراعة والري، كما استفاد الكلدانيون أيضا من خبرات اليهود الذين كان أغلبهم من النخبة، لا سيما وأن الكلدانيين أحسنوا معاملة اليهود لأنهم ما عادوا يخشون منهم، ومن تآمراتهم مع أعدائهم المصريين.

إلا أن اليهود، على ما يبدو، قد عانوا من نظرة الشعوب العنصرية لهم، على اعتبارهم من الجماعات العبرية المكروهة، وعلى اعتبارهم شعوباً مهزومة تاريخيا، وهو الأمر الذي جعل البعض من اليهود يتزمّت بانتمائه إلى يهوديته، كما ساهمت أيضا بتحريض، كردة فعل، العنصرية اليهودية على اعتبار أنه شعب الله المختار، حسب تصوره، وهو الأمر الذي ساهم في النهاية بتبلور الديانة اليهودية، التي حمّلت بالتأريخ اليهودي الذي أرادوا منه أن يكون ردا على من كان يتهمهم بوضاعة أصولهم العبرية.

أما من جانب آخر، فقد جعلت، تلك التهمة بعض اليهود، وفي محاولة للتخلص من تلك التهمة التي تلاحقهم، أن يندمجوا في المجتمع البابلي، الأمر الذي أدى إلى أزمة دينية يهودية، لا سيما بعد أن بدأت الجماعات اليهودية تتنكر ليهوه، وتشرك مع عبادته عبادة الرب البابلي مردوخ، وهذا ما جعل الكهنة اليهود يشعرون بقلق شديد تجاه ذوبان الذات والأنا اليهودية في بوتقة الحضارة البابلية الرافدية، وبدأ الكهنة اليهود ببث الروح الأثنية في بابل، بل إنهم أصبحوا أكثر تمسكا بيهوديتهم وأثنيتهم من أولئك الفقراء الذين بقوا في قرى يهوذا الفقيرة، لا سيما وأن الكلدانيين وطّنوا المسبيين من اليهود في منطقة، أو إقليم واحد، الأمر الذي ساهم في تشكيل مجتمع يهودي متماسك، على عكس ما فعل الآشوريون الذين قاموا بإسكان الإسرائيليين واليهود في مناطق متفرقة من جبال إقليم كردستان المعزولة نسبيا، ولأن الكهنة لا يمكن لهم أن يتخلوا عن فكرة الهيكل (بيت الرب الأبدي في أورشليم)، فقد التفوا حول هذا المطلق بابتكار بناء الكنيس في بابل مكانا للتعبد، وعاصمة مؤقتة بديلة (عاصمة السبي)، كما جعلوا من سفر الشريعة (وهو النواة الأولى لسفر التثنية) دستورا لتلك العاصمة، وبذلك حلّوا معضلة مركزية

بيت الرب في أورشليم، كمكان وحيد للتعبد، وهو الأمر الذي ساهم في زرع الشقاق، والأفكار العنصرية، والبغضاء بين اليهود المسبيين، وبين باقي الأثنيات في بابل.

لم يكن للكهنة دور حقيقي في قيادة المجتمع لمرحلة ما قبل السبي، فبعد موت هارون وابنيه، انتهى، أو شحب بشكل عام دور الكهنة، إلى أن استطاعوا في عهد الملك يوآش عندما كان صغيرا أن يتسلموا السلطة بقيادة الكاهن يهوياداع، والذي تم دفنه في مقبرة الملوك الأمر الذي يشير إلى الأهمية التي وصلوا إليها في تلك الفترة، كما كان لهم دور قيادي بقيادة الكاهن حلقيا في زمن الملك الشهير يوشيا أيضا، ولكن الدور الحقيقي للكهنة كان في زمن السبي وما بعده، باستثناء فترة حكم الملك الأشهر هيرودوس الذي قام بتهميش دورهم القيادي، ولكنهم عادوا مرّة أخرى ليكونوا قادة اليهودية في مرحلة الشتات، واستمرت قيادتهم حتى تسلمت الصهيونية السياسية تلك القيادة في بداية القرن المنصرم.

والكهنة هم الذين قاموا بتأسيس، وبلورة الدين اليهودي بعد سبيهم إلى بابل، ويمكن القول أن الأسر البابلي هو المرحلة المفصلية الحقيقية في تشكّل اليهودية من العبرانية الإسرائيلية، فبعد أن تعرضت جماعات السبي بشكل مفاجئ لحضارات وديانات وقوميات مختلفة، نظرت بشيء من الازدراء إلى الجالية اليهودية، الأمر الذي قاد الجالية اليهودية إلى التقوقع على نفسها وعلى معتقداتها.

ومن خلال شعور اليهود بالكره العميق للشعوب التي اضطهدتهم نفسيا، فقد حاولوا التصدي لذلك نفسيا من خلال اعتزازهم بمعتقداتهم وتراثهم، وبدؤوا يؤسسون هوية أثنية خاصة ومتميزة بهم، وقد قام بهذا الدور أنبياؤهم حزقيال في الأسر البابلي، وإرميا قبل، وبعد ذهابه إلى مصر، وسواهم من الأنبياء اليهود، الذين قاموا بتسيس ماضيهم، وتنظيم حاضرهم، وإشاعة أحلامهم وأمانيهم بالعودة إلى فردوسهم المفقود في أرض الميعاد على يد المسيح المنتظر الذي سيوقع العهد أو العقد الجديد بين شعب الله المختار وبين الرب يهوه، بعد أن مزق الرب يهوه نسخته الخاصة من العقد، أو العهد القديم، وصار في حل منه، وأرسل لهم نبوخذ ناصر ليمزق نسخة عقد زوجة الرب (إسرائيل) الذي رمى عليها الرب الطلقات الثلاث لأنها لم تتقيد، ولم تلتزم بواجبات الزوجية.

من أجل توقيع عهد جديد مع الرب، وإعادة عقد القران بين الرب، وبين زوجته التائبة إسرائيل، كان لا بد من مراجعة الأسباب التي جعلت الرب يحزم أمره، بعد تردد، وأن يسرّح زوجته الخائنة إسرائيل، وبعد تلك المراجعة، والوقوف، والاعتراف بالأخطاء، والذنوب التي اقترفتها إسرائيل، ستعلن توبتها، وبذلك سيقوم الرب بعقد قرانه ثانية عليها، وسيكون شاهد، وعراب العقد، أو العهد الجديد هو المسيح الذي قام أنبياؤهم بالتبشير بمجيئه، وكان اليهود قد تعرفوا على عقيدته من الديانة الزارادشتية، كما أنهم اطلعوا على جميع الثقافات، والعقائد، والتصورات التي كانت منتشرة بين شعوب الشرق الأدنى القديم، والتي كانت بابل تمثل عاصمة لها، وقاموا باستقراض، وتهويد الكثير من الأدبيات، والتصورات الدينية التي كانت منتشرة في بابل.

ولكن الدولة الكلدانية لم تستطع أن تعمر طويلا، فقد بدأت بالتحلل والتفكك بسرعة كبيرة، وهي في ريعان شبابها، وفي تلك الفترة كان قورش (٥٥٠ - ٥٢٩ق.م) قد استطاع توحيد بلاد فارس تحت إمرته من خلال توحيده للميدين والفرس في أمة واحدة، وبدأ بمشاريعه التوسعية، فزحف نحو بابل التي سقطت، بيد قورش الذي قدّم نفسه على أساس أنه

فاتح، ومحرر للشعوب سنة ٥٣٩ قبل الميلاد، ولذا فلم يقوم البابليون بمقاومته، بل إنهم استقبلوه بالترحيب والمباركة لا سيما من قبل الكهنة التقليديين، وأيضا من قبل الجاليات الأجنبية.

ومنذ دخول قورش إلى بابل قام بإطلاق وعوده بإعادة الشعوب التي كان الآشوريون والبابليون قد هجّروهم من بلدانهم، ومنهم اليهود، الذين سجلوا وعد قورش في التوراة «هكذا قال كورش ملك فارس جميع ممالك الأرض دفعها لي الرب إله السماء وهو أوصاني أن أبني له بيتا في أورشليم التي في يهوذا. من منكم من كل شعبه ليكن إلهه معه ويصعد إلى أورشليم التي في يهوذا فيبني بيت الرب إله إسرائيل. هو الإله. الذي في أورشليم. وكل من بقي في أحد الأماكن حيث هو مغترب فلينجده أهل مكانه بفضة وبذهب وبأمتعة وببهائم مع التبرع لبيت الرب الذي في أورشليم» عزرا ١: ٢-٣-٤.

وقد اعتقد أو افترض البعض وجود اتفاق سري بين قورش وبين اليهود المسبيين لإسقاط بابل، وهم يذهبون إلى أن هذا الوعد الذي أطلقه قورش كان مقابل خدمات معينة يقدمها اليهود في بابل لإسقاطها بيد قورش، والبعض، ومنهم جورجي كنعان، يذهب إلى أن كورش هو ابن أستير اليهودية صاحبة السفر المسمى باسمها، كما يعتقد أيضا أن النبي أشعا كان يعمل كجاسوس، وعميل لكورش في بابل.

وقد بر قورش بوعده، وسمح لليهود بالعودة إلى أورشليم في سنة ٥٣٦ قبل الميلاد، كما فعل مع الشعوب المتعددة التي كانت قد هجّرت أثناء الحكم الآشوري والكلداني.

وقد ترك هذا الوعد الحرية لليهود في العودة إلى أورشليم، أو البقاء في بابل، كما أن هذا الوعد أسس أو شكل مفهومين للعودة إلى (الأرض المقدسة):

الأول توطيني يقوم على حث المسبيين إلى العودة إلى الأرض المقدسة، والعيش فيها.

والثاني استيطاني يحث الذين لا يرغبون، أو لا يستطيعون العودة لأسباب معينة، من اليهود بدفع تبرعات مالية، وعينية، للذين قرروا العودة، وهو ما تبنته أيضا الصهيونية في الوقت الحالي (الصهيونية التوطينية، والصهيونية الاستيطانية).

وتنفيذا لهذا الوعد قامت السلطة الفارسية بإعادة محتويات بيت الرب إلى قادة اليهود ليرجعوا بها، ويضعونها في الهيكل بعد أن يعيدوا بناء هيكله المدمر، وكانت الدفعة الأولى التي عادت بقيادة شيشبصر ابن ملك يهوذا يهوياقين والذي شغل منصب الوالي، وكانت بحدود سنة ٥٣٦ قبل الميلاد، ولم تذكر التوراة عدد من عادوا معه، وعلى ما يبدو كان العدد قليلاً إلى درجة أن هذه الدفعة يهملها الكثيرون، ويُعتقد أن شيشبصر قد بدأ بوضع أساسات الهيكل قبل أن يختفي ذكره، ولكن البعض يعتقد أن شيشبصر هو اسم فارسي لزربابل اليهودي، أو لقبا له.

أما الدفعة أو الكتلة البشرية الأولى (الدفعة الثانية) فكانت في السنوات الأولى لحكم داريوس ابن قمبيز (٥٢٢ - ٤٨٥ق.م)، وكان عدد من عاد من السبي في هذه الدفعة ٤٢٣٦٠ يهوديا، و٧٣٣٧ خادما، و٢٠٠ من المغنين، إضافة إلى الممتلكات التي كان نبوخذ ناصر قد أخذها من أورشليم، وقد سلكوا في عودتهم، حسب رأي البعض، الطريق الذي كان إبراهيم قد سلكها من قبل، والذي ينطلق صعودا نحو حاران أولا، ثم من هناك عبر وسط سوريا إلى دمشق، فبحيرة طبريا، ثم أورشليم، وكانوا تحت قيادة الكاهن يشوع بن يهوصاداق، وزربابل سليل آل داود، والجد الأكبر ليوسف النجار، وزربابل يعني المولود

في بابل، وكان قد عُيّن من قِبل السلطة الفارسية واليا على مقاطعة يهودا، وكان يرى فيه اليهود أنه المسيح المنتظر، ولكن سرعان ما بهت نجمه لمصلحة الكهنوت اليهودي وتحوُّل القيادة السياسية إلى قيادة دينية فحسب، وعلى الرغم من أن اليهود المعتاشة البسيطة التي كانت قد بقيت في فلسطين - والتي لم يتم سبيها إلى بابل - عاشت في بيوت بسيطة وفقيرة، وقد رفضت أو امتعضت - بسبب فقرها - من بناء بيت الرب، ولكن الوجهاء العائدين أقنعوهم بأن بناء بيت الرب سيجلب لهم الخير والبركة، ولما انتهوا من بناء الهيكل المعماري لبيت الرب، وبعض الأبنية الدفاعية البسيطة، ومنها بناء السور، نحو سنة ٥١٨ قبل الميلاد، قدّم أبناء الشعوب الأخرى، الذين كانوا يعيشون في المنطقة قبل عودة المسبيين، شكوى إلى الملك الفارسي يطلبون منه التدخل لإيقاف أعمال البناء خاصة الدفاعية منها، وقد وافق الملك الفارسي على مطلبهم، وأمر بإيقافها، لكن العاهل الفارسي داريوس أمر في مرحلة لاحقة بإتمام البناء من الجزية التي يدفعها أبناء المنطقة لخزينة الملك.

وفي عهد الملك أرتحشستا (٤٦٥ - ٤٣٤ق.م) (ارتاكسيركس الأول)، قرر عزرا (وهو كاتب سفر عزرا، وأحد زعماء اليهود في بابل)، أن يذهب إلى أورشليم بعد أن سمع أخبارا سيئة عن حال من عادوا، وكان قد أخذ من الملك أرتحشستا أمرا بإرجاع من يريد من اليهود في بابل إلى أورشليم وأعطاه نفائس من بابل، وأمراً إلى الخزينة التي في عبر الأردن لإمداد عزرا بما يحتاج لإعادة بناء بيت الرب.

ولما وصل عزرا إلى أورشليم (ككاهن) في الدفعة الثالثة نحو سنة ٤٥٧ قبل الميلاد، ومعه ١٧٥٤ من الرجال، وجد هناك سوء الأوضاع العامة للشعب اليهودي الذي بدأ ينحلّ في الشعوب المتنوعة، بعد أن اكتشف الشعب اليهودي أن الفردوس المفقود، الذي ظل طوال فترة السبي يحلم بالعودة إليه، عبارة عن مجموعة من الخرائب، التي كانت تعاني من القحط والجفاف، إي هو أقرب إلى الجحيم منه إلى النعيم، وهذا دعاهم إلى نبذ اليهودية، والعقلية اليهودية، وراح يتقرب، ويندخل، ويتزاوج مع الشعوب الأخرى، وهذا ما جعل عزرا يغضب كثيرا عندما اكتشف ذلك، وخاصة على المتزوجين من نساء غير يهوديات، وكان الكثير من اليهود بعد العودة من السبي قد تزوجوا من نساء غير يهوديات بسبب قلة النساء اليهوديات اللواتي رجعن من السبي، ويبدو أن النظام الديني المتشدد لم يُرضِ العامة من الشعب، كما ساهم بإفقارهم بسبب الضرائب التي كان عليهم أن يدفعوها، وبسبب أعمال السخرة التي كان يجب أن يقوموا بها من أجل إعادة إعمار بيت الرب، وسور المدينة، وهذا ما ساهم أيضا بانتشار الفساد الأخلاقي فيما بينهم أيضا، وقد عقد عزرا اجتماعا، بعد أن قَدِم نحميا من بابل كوالي على إقليم اليهودية سنة ٤٤٤ قبل الميلاد، قرأ فيه سفر موسى على الشعب، وأفتى أمرا جماعيا بتطليق كل النساء الأجنبيات، وقد شدّد نحميا على الالتزام والتزمت بتطبيق الشريعة «وكل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك فليقض عليه عاجلا إما بالموت أو بالنفي أو بغرامة المال والحبس) عزرا ٧.

لقد جاء نحميا بشريعة كانت قد كتبت بالتعاون والتزاوج ما بين الأعراف والتقاليد اليهودية، والقوانين والأنظمة الإدارية والسياسية للسلطة الفارسية، وكانت تلك الشريعة جديدة على الشعب، لأن عزرا قام بشرحها وتوضيحها من خلال الكهنة واللاويين، وقد رُفضت هذه الشريعة من قبل الذين بقوا في البلاد (خاصة السامريين) الذين لم يذهبوا مع

السبي، لأن هذه الشريعة تختلف عن القوانين والأعراف التي كانت تنظمهم، بعد أن عُدّلت بما يتلاءم ونظم السلطة الحاكمة الفارسية، وادعى عزرا أنها شريعة يهوه.

وجاء نحميا ومعه، إضافة إلى الشريعة اليهودية - الفارسية، أمرا من الملك إلى ولاة عبر الأردن لمساندته باعتباره واليا على يهود أورشليم، وقد بدأ نحميا أعمال ترميم واسعة، وخاصة في السور والأبواب بعد أن وجد أورشليم خرابا، وكان إلى جانبه عزرا الكاهن، وقد اعترضت الجماعات غير اليهودية على تلك الأعمال خاصة منها العسكرية «ولما سمع سنبلط وطوبيا والعرب والعمونيين والأشدوديين أن أسوار أورشليم قد رممت والثغر ابتدأت تسد غضبوا جدا. وتآمروا جميعهم معا أن يأتوا ويحاربوا أورشليم ويعملوا بها ضررا» نحميا ٤: ٧، ولكن اليهود، الذين علموا بذلك، استنفروا، وهذا ما حال دون ما بيت لهم أعداءهم، وقد استمرت أعمال إعادة البناء، على الرغم من التذمر الشعبي اليهودي الواسع على الضريبة التي يدفعونها من أجل بناء بيت الرب، حيث أنهم اضطروا إلى أن يرهنوا أرضهم مقابل الحصول على القمح، كما أنهم كانوا يبيعون أبناءهم عبيدا، وكانوا في هذه النقطة تحديدا يرفعون أصوات تذمراتهم عاليا، ولكن نحميا، ردّ عليهم قائلا «نحن اشترينا أخوتنا اليهود الذين بيعوا للأمم حسب طاقتنا. وأنتم أيضا تبيعون أخوتكم فيباعون لنا. فسكتوا ولم يجدوا جوابا» نحميا: ٥، كما أن موجة من الجفاف كانت تعاني منها المنطقة، زادت الأمر سوءا، وزادت من فقر، وجوع اليهود البسطاء، والسذج الذين كانوا مخدوعين بما كانت تروجه القيادات اليهودية الدينية، والسياسية من أن بناء الهيكل سوف يكون إعلانا لبداية العهد الجديد (عصر الخلاص).

واستمرت أعمال إعادة الإعمار التي كانت شديدة الوضاعة، ولم يكن هناك إعادة إعمار بالمعنى الحقيقي، بسبب ضعف الإمكانات المتوفرة، مترافقة مع عدم قناعة المسخرين الفقراء بما يقومون به، إضافة إلى أن تلك الأعمال كانت متسرعة، وكان يشوبها الخوف والخشية والريبة والاضطراب بسبب مراقبة الشعوب غير اليهودية لتلك الأعمال «ولما سمع سنبلط وطوبيا وجشم العربي وبقية أعدائنا أني قد بنيت السور.. أرسل سنبلط وجشم إلي قائلين هلم نجتمع.. وكانا يفكران أن يعملا بي شرا» نحميا: ٦، لكنه لم يذهب خوفا من أن يتم قتله من قبلهم.

وبعد انتهاء أعمال البناء البسيطة، المتواضعة للهيكل، والسور نصّب نحميا أخوه حننيا رئيسا للقصر في أورشليم، «وفي اليوم الرابع والعشرين من هذا الشهر اجتمع بنو إسرائيل بالصوم وعليهم مسوح وتراب. وانفصل نسل إسرائيل من جميع بني الغرباء ووقفوا واعترفوا بخطاياهم وذنوب آبائهم.» نحميا ٩، وفي النهاية قامت القيادة اليهودية بإجراء قرعة للشعب اليهودي، تم بمقتضاه إسكان ١٠% من الشعب في أورشليم، والباقي تم توزيع سكناهم على الأرياف، ويعتقد الكثيرون أن من عادوا من بابل إلى أورشليم لم يكونوا فقط ممن تم سبيهم على يد البابليين - والذين يقدر عددهم في أفضل الحالات بعشرة آلاف نسمة، وكان من عاد في الدفعة الثانية بقيادة زربابل ٤٢٠٠٠ نسمة - بل إن شعوباً أخرى عادت معهم، وربما كانوا قد تهودوا، أو بقوا على دياناتهم، لأن الفارق كان كبيرا بين عدد من تم سبيهم، وعدد من عادوا، على الرغم من أن الكثيرين ممن سبوا لم يعودوا، وهم الذين قاموا بدل عودتهم بدفع تبرعات لمن عادوا حسب ما طالب به وعد قورش، ويُعتقد أن من عادوا من اليهود كانوا الأكثر فقرا، والأكثر تشددا، وتمسكا بيهوديتهم، وهذا يتشابه مع حالة قدوم اليهود من الدول التي تفككت من الاتحاد السوفييتي.

والجدير ذكره هنا أن أسماء من عادوا من السبي ينتسبون، حسب ما جاء في سفري عزرا ونحميا، إلى سبعة عشر موقعا في جبال يهوذا، ولم يكن أحد منهم ينتسب إلى مدينة أورشليم، ثم أن سفري عزرا ونحميا يشيران إلى أن ما دعاهم بالأعداء، وهم سنبلط، وطوبيا، وجشم العربي، كانوا يعيشون على محيط مدينة أورشليم، أو على مقربة منها، أو حتى في حي من أحيائها، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن منطقة اليهودية لم تكن يهودية صرفة في مرحلة ما قبل السبي، وكذلك هو الأمر بالنسبة لأروشليم التي كانت مقسمة إلى قسمين أو حيّين، أحدهما يهودي، والآخر كنعاني، وبعد أن تم سبي اليهود من سكان يهوذا، وبعض الكنعانيين من غير اليهود من أورشليم ومن سائر مدن وقرى يهوذا، قام أبناء المناطق المجاورة من العمونيين، والسامريين (بقايا الإسرائيليين)، والعرب، بالسكن في بعض مناطق يهوذا الخصبة، ولما عاد اليهود من السبي البابلي حصل صدام بين القيادات اليهودية، والسكان الذين كانوا يعيشون في بعض أحياء مدينة أورشليم، وفي بعض القرى المحيطة بها، وهو الذي يفسر كيف أن بعض الجماعات اليهودية التي كادت من بابل قد بدأت تندمج معهم، كما تفسر كيف أن الجماعات اليهودية التي عادت من السبي كانوا يعملون كأجراء، وعبيد عند الكنعانيين، والسامريين (الإسرائيليين) «ها نحن اليوم عبيد والأرض التي أعطيت لآبائنا ليأكلوا أثمارها وخيرها ها نحن عبيد فيها وغلاتها كثيرة للملوك الذين جعلتهم علينا لأجل خطايانا وهم يتسلطون على أجسادنا وعلى بهائمنا حسب إرادتهم ونحن في كرب عظيم» نحميا ٩.

أما بالنسبة للشعوب الكنعانية التي تم سبيها من مدينة أورشليم ومحيطها، في سياق السبي البابلي، والتي كانت تعيش في بابل، فحسب ما أعتقد، فقد نشب خلاف قانوني تاريخي بينها، وبين اليهود حول حق العودة إلى اليهودية، بعد أن أصدر قورش وعده الشهير، وقد عادت بعض العائلات الكنعانية إلى موطنها السابق، وسكنت في مدينة أورشليم، وهو ما أشير إليه في سفر زكريا «ويهوذا أيضا تحارب أورشليم وتجمع ثروة كل الأمم من حولها.. في ذلك اليوم لا يكون بعد كنعاني في بيت رب الجنود» زكريا ١٤، بل إن هذا النص يشير إلى أن أورشليم كانت مدينة كنعانية، أو ذات أغلبية كنعانية، وهو السبب الذي يسوغ إسكان نسبة العشرة بالمئة فقط من اليهود الذين عادوا من بابل، ويبدو أن هذه النسبة كان متفق عليها مع السلطة الفارسية، والجماعات الكنعانية التي عادت من السبي، وحسب اعتقادي فقد بقيت بعض الأحياء من مدينة أورشليم مأهولة بسكانها الكنعانيين، الذين لم يتم سبيهم إلى بابل، كما أعتقد أن حالة أورشليم في محيط السبي البابلي كانت أشبه ما يمكن بحال مدينة يثرب في سياق الهجرة الإسلامية إليها، أي أن اليهود في أورشليم كانوا يقطنون حيا مسورا يقع على جبل صهيون تحديدا، أي أنه كان غيتو يهودي على محيط مدينة أورشليم الكنعانية، وكان هناك صراع بين الكنعانيين، واليهود، وقد استمر هذا الصراع في بابل في سياق السبي البابلي، وقد حاول محررو التوراة طمس هذا الخلاف، من أجل طمس حقيقة كون مدينة أورشليم ذات أغلبية كنعانية، بل يمكن النظر، من هذه الزاوية فحسب، إلى التوراة على أنها ادعاء (أيديولوجي) للحق التاريخي الديني لليهود في منطقة اليهودية بشكل عام، ومدينة أورشليم بشكل خاص، وقد برز دور هذه الوثيقة الادعائية ثانية في سياق الهجرة الصهيونية إلى فلسطين في القرن الماضي.

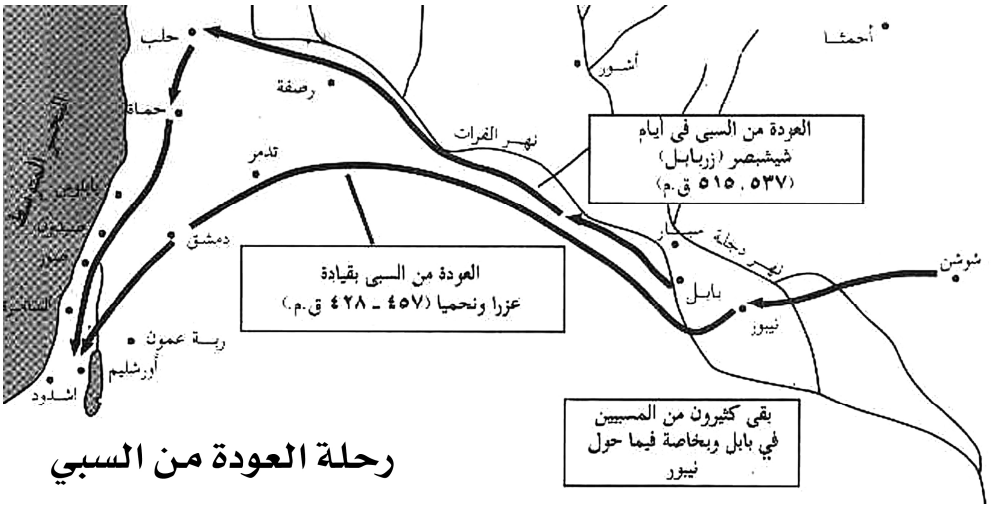

رحلة العودة من السبي

المعطيات الآثارية في العهد الفارسي

لم يعثر على وثائق أو نصوص تتعلق أو تتقاطع مع مقولات التوراة في العهد الفارسي، ولم يعثر أيضا على وعد قورش، ولم يعثر على أي وثيقة تتحدث عن منطقة فلسطين لا فارسية، ولا مصرية في ظل الحكم الفارسي، ولكن عُثر على اسطوانة قورش، والتي يقول فيها إن الرب البابلي مردوخ {فتش في كل الأقطار بحثاً عن حاكم بار مستعد أن يتولى قيادة موكبه - موكب مردوخ - السنوي، فلم يجد سواي ملك أنشان، فنادى بي حاكماً لكل العالم.. ومن دون أي معارك جعلني أدخل مدينته - بابل - وبذلك أنقذ بابل من أي كارثة.. وقد أَعْدت للمدن المقدسة في الجانب الآخر من الدجلة - إلى مقادسها التي ظلت خراباً زمناً طويلاً- التماثيل التي كانت تقيم بها، وأقمت لها مقادس دائمة، كما جمعت كل سكانها السابقين وأعدت لهم مساكنهم}، وفي نص آخر يقول قورش {فيما يتعلق بالمنطقة من آشور وسوسه وأجاد واشنونا والمدن، فأنا قد أعدت إليهم المدن المقدسة التي ظلت مخربة لمدة طويلة، والصور التي كانت موجودة بها.. كما أني قد جمعت سكانها السابقين وأعدتهم إلى مساكنهم}، وهذا يوحي أو يعطي لوعد قورش التوراتي - والذي تمت إعادة صياغته على أيدي محرري التوراة - مصداقية عالية.

وقد عثر في بابل أيضا على وثائق مالية تعود إلى مؤسسة مالية ضخمة أصحابها من عائلة المواشو، ولأن تلك العائلة، وعملائها، تكثر فيها الأسماء اليهودية، فقد اعتبر الباحثون التوراتيون تلك العائلة يهودية، وسموا تلك المؤسسة (البنك البابلي اليهودي)، وتعود هذه المؤسسة إلى عهد الملك ارتحششتا (٤٦٥ - ٤٢٥ق.م).

آما في بلاد كنعان فقد وجدت البعثات الأركيولوجية طبعات أختام على الجرار الفخارية، وقطعاً معدنية وجد عليها بالخط الآرامي نقش لمقاطعة يهودا، أما البينات المعمارية فهي تبين فقر المنطقة، وتراجع مساحات المدن والقرى في مقاطعة يهودا عما كانت عليها قبل تدميرها من قبل البابليين، شملت مدينة أورشليم التي انحصرت ابنيتها على هضبة أوفيل فقط، ويعتقد أن سكانها لم يتجاوزوا في أحسن الأحوال ثلاثة آلاف نسمة، ففي تلك الفترة، شحبت الحياة في منطقة أورشليم، ومحيطها لعدة أسباب منها الإهمال الإداري الفارسي ليهودا، إضافة إلى الظروف البيئية الصعبة التي اجتاحت المنطقة وأدت إلى تدمير المزروعات وتراجع الخصوبة، وإصابة البلاد بآفات زراعية متعددة، بسبب الجفاف والصقيع والجراد أيضا حسب ما جاء في سفر حجي.

والجدير ذكره أن المؤرخ والرحالة الشهير هيرودوتس الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، والذي زار فلسطين في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، أي في الزمن المفترض لعزرا، وفي الوقت الذي كان فيه هيكل أورشليم في طور البناء، لم يأت هيرودتس على أي ذكر لليهود في فلسطين، بل لم يذكر مدينة أورشليم على الإطلاق، وهذا يجعلنا نعتقد أن الجماعات اليهودية في فلسطين كانوا من القلة، ومن الغياب الوجودي بحيث لم يأت هيرودوس على ذكرهم، وربما لم يسمع بهم أبدا.

ويمكن هنا أن ننعطف قليلا، ونتحدث أيضا عن جزيرة أو مستعمرة ألفانتين (جزيرة الفيلة) التي تزامنت، وارتبطت جزئيا بالتاريخ الفارسي، وكذلك بالنسبة لإمارة حدياب، وإمارة بابل في العهد الفرثي.

جزيرة الفيلة:

تقع جزيرة الفيلة (إلفانت) في النيل بمنطقة أسوان على مقربة من الشلال الأول، وكانت هذه الجزيرة قديما محطة تجارية للبضائع الأفريقية وأهمها جلود وأنياب الفيلة (العاج)، وهو سبب تسميتها بهذا الاسم، وقد تم توطين جماعات يهودية فيها بعد سقوط مملكة يهوذا، فبعد أن تمردت يهوذا على الحكم البابلي بتحريض من مصر، وتم قتل جدليا الذي عُيّن من قبل البابليين، فر الكثير من الجماعات اليهودية، ومعهم النبي إرميا إلى مصر، وهناك منحتهم حليفتهم مصر مستعمرة إلفانتين (جزيرة الفيلة) في عهد بسماتيك الثاني، وتم توظيفهم كجنود مرتزقة يقفون على الحدود الجنوبية لمصر لحمايتها من النوبيين، ويعتقد البعض أنه كان في الجزيرة بعض الجماعات العبرية الإسرائيلية قبل قدوم الجماعات اليهودية، وما يسوغ ذلك هو نمطهم الديني الذي يعود إلى مرحلة لم يتبلور فيها بعد الدين اليهودي، وقد انقلبت هذه الحامية على المصريين لمصلحة الفرس سنة ٥٢٥ قبل الميلاد أثناء غزو الفرس لمصر، كما أن جنود تلك الحامية ساهموا بقمع التمرد المصري أثناء حكم أرتحشستا الأول (٤٦٥ - ٤٣٤ق.م)، وقد تم تدمير المعبد اليهودي الضخم بانتفاضة شعبية قادها كهنة الإله المصري خنوب سنة ٤١٠ قبل الميلاد، وكان المعبد ذو خمسة أبواب، بعدد الآلهة التي كانت الحامية اليهودية تتعبد لها، هي: ياهو (يهوه) وزوجته عناة ياهو (عشيرة)، وإيشوم، وبيت إيل (وهو إله إسرائيلي من السامرة)، وعناة بيت إيل، وحيريم بيت إيل، وقد حافظ أعضاء الجالية على يهودية ما قبل السبي، كما أنهم كانوا على اتصال برجال الدين في أورشليم، وتركوا بعض الوثائق والمخطوطات، وانتهى وجودهم سنة ٣٩٤ قبل الميلاد بعد تحرر مصر من الحكم الفارسي.

إمارة حدياب:

تشكلت إمارة حدياب في أربيل في المنطقة الحدودية بين الإمبراطورية الرومانية والفرثية في منطقة آشور القديمة في شمالي العراق، في قضاء الموصل، وكانت عاصمتها أربيل، وهي تشكل تقريبا ما يسمى الآن بإقليم كردستان العراق.

كانت غالبية شعب الأمارة من المتهودين، ومن بعض اليهود الذين لم يعودا مع عودة السبي، ويعتقد أن بعض أفرادها كانوا من بني إسرائيل، ومن اليهود الذين تم تهجيرهم على يد الآشوريين من السامرة، ومن يهوذا، وقد تشكلت هذه الإمارة في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد، وبلغت ذروة اتساعها ونشاطها في القرن الميلادي الأول، وكانت تابعة للإمبراطورية الفرثية (٢٤٧ق.م - ٢٢٦م)، التي منحت تلك الإمارة قسطا كبيرا من الاستقلالية في عهد حاكمها الوثني آفراهاط الثاني (٦٩ - ٥٧ق.م)، وفي عهد ابنه ورود الثاني (٥٧ - ٣١ق.م)، وفي بداية القرن الأول بعد الميلاد حكم عليها الوثني مونوبازوس، والذي تزوّج من أخته هيلانة، ويعتقد البعض أنهما كانا آراميين، وقد بعث مونوبازوس بابنه إيزاط وأمه هيلانة إلى مدينة كاراس

سباسينو (والتي يعتقد أنها مدينة المحمرة الحالية) على شط العرب، وهناك تهود إيزاط وأمه على يد تجار يهود، وبعد موت مونوباس تولى الحكم بعد زمن ابنه المتهود إيزاط الثالث (٣٦ - ٦٠م)، والذي عاصر الملك الفرثي أرطبان الثالث (١٢ - ٣٨م)، كما عاصر الصراع على العرش الفرثي بعد موت أرطبان الثالث، وقد بلغت الإمارة قمة استقلالها في عهده، ولعبت دورا مهما في النزاع الروماني الفرثي، والروماني اليهودي في فلسطين، وتولى الحكم بعد إيزاط الثالث أخوه مونوبازوس الثاني، وفي تلك الفترة ساهمت هذه الإمارة بثورة اليهود على الرومان بين سنتي ٦٦ - ٧٣ للميلاد، وقدمت عونا لولاية اليهودية، ومن الجدير ذكره أن هيلانة قد زارت أورشليم وأمرت بحفر قبر لها ولأولادها في الصخر في المدينة المقدسة (أورشليم)، وبقيت هذه السلالة المتهودة تحكم الإمارة حتى سقطت سنة ١١٥للميلاد بيد الروم في عهد الإمبراطور تراجان.

وبعد أن بلغ التبشير بالمسيحية ذروته في القرنيين الثاني والثالث الميلادي، وصل هذا التبشير إلى إمارة حدياب، ويعتقد أن شعب هذه الإمارة قد تمسحوا واعتنقوا المذهب النسطوري (نسبة إلى نسطوريوس) في القرن الخامس الميلادي، وهو أول انشقاق للكنيسة المسيحية، وهو المعتقد الذي يذهب إلى أن للمسيح طبيعتين (أقنومين) إنسانية، وإلهية، وهما مثل الماء والزيت لا يختلطان، وكانت عاصمة هذا المذهب في مدينة الرها، وقد عرف النساطرة في إقليم كردستان بالآشوريين، أو الآثوريين (النساطرة الآشوريين) الآن، وحسب رأي د. أحمد سوسة فإن هؤلاء النساطرة الآثوريين لا ينحدرون من العرق الآشوري، وإن تسميتهم بالآشوريين التي أطلقها عليهم الإنكليز منذ قرنيين من الزمان فقط، هي بدعة استعمارية، ويذهب أحمد سوسة أيضا، إلى أنهم ينحدرون من الأسباط الضائعة العشرة من بني إسرائيل، وقد بقي البعض منهم على يهوديته.

وبعد مجيء الإسلام دخل البعض منهم في الإسلام، وبذلك أصبح أحفاد أمارة حدياب يهوداً، ومسيحيين نساطرة، وإسلاماً، وقد انضم إلى نساطرة إقليم كردستان، بعض النساطرة الذين فروا من اضطهاد المغول لهم، والتجؤوا إلى إخوانهم في المذهب في جبال إقليم كردستان المعزول والحصين نسبيا.

وأحمد سوسة في ما ذهب إليه تبنى مقولة الدكتور والمبشر الأمريكي غرانت، الذي يرى أن النساطرة هم أحفاد اليهود (وهو يُعَدّ الإسرائيليين هم من اليهود) الذين تم سبيهم على يد الآشوريين (وهم الأسباط العشرة الضائعة من بني إسرائيل).

وعلى ما يبدو كانت إمارة حدياب قد تشكلت من مزيج شعوب متعددة، فهم يتشكلون من الميديين الفرس (أسلاف الأكراد)، مع جزء من الشعوب التي كانت آشور قد قهرتهم وأسكنتهم في منطقة آشور، ومنهم الجماعات الآرامية، والجماعات الإسرائيلية الكنعانية، والجماعات اليهوذية التي كان سنحاريب قد أسرهم سنة ٧٠١ قبل الميلاد، والذي جاء في أحد حولياته أن عددهم بلغ ٢٠٠١٥٠ إنسان، إضافة إلى من سباهم أسلافه (تغلات فلاسر الثالث، شلمنصر الخامس، سرجون الثاني) من مملكة السامرة، كما أضيف إليهم بعض الآشوريين بعد اندحار دولتهم على يد البابليين، وقد تهود أغلبية سكان الإمارة بعد تهود أميرهم إيزاط الثالث، والغريب أن التوراة اليهودية لم تأت على ذكر عدد اليهود الضخم (٢٠٠١٥٠)، الذين تم سبيهم على يد الآشوريين، ولا عدد الإسرائيليين الذين من المفترض

أن يكون عددهم أعلى من عدد اليهوذيين، كما أن الأسفار التي أرخت لمرحلة السبي البابلي لم تأت على ذكرهم مطلقا، كما لو أنهم اختفوا من التاريخ.

إمارة بابل:

على هامش إمارة حدياب الفرثية الفيدرالية، قام يهوديان هما أسناي وأنيلاي اللذان كانا يرأسان عصابة من العصاة والمنبوذين والمتشردين والمطلوبين قضائيا، وتمردا على الحكم الفرثي في عهد العاهل أرطبان الثالث (١٦ - ٣٨ق.م) وأنشأا قلعة في تخوم إمارة بابل الفرثية، وكانا يأخذان الأتاوات من البدو رعاة الأغنام، مقابل تأمين الحماية لهم، وقد ازداد نفوذهما واستقلالهما، الأمر الذي جعل العاهل الفرثي أرطبان الثالث أن يطلب من حاكم إمارة بابل أن يقوم بتجهيز حملة لإخضاعهما، ولكن الأخوين استطاعا من خلال المفاجأة أن يقضيا على الحملة، الأمر الذي جعل أرطبان الثالث يعترف بهما، وينصب أسيناي حاكما على منطقة بابل، كما عين أخاه أنيلاي مساعدا له، وكان أنيلاي قد أحب امرأة فرثية كانت زوجة لأحد القادة الفرثيين، وتزوج بها بعد أن قتل زوجها في إحدى المعارك، ولأن هذه الزوجة كانت تمارس طقوسها الوثنية، فقد قدّم اليهود شكوى إلى الحاكم أسناي، الذي طلب من أخيه أنيلاي (حسب طلب الشعب) أن يطلق امرأته، فما كان من زوجة أنيلاي سوى أن تآمرت على أسناي، ودسّت له السم وقتلته، وبذلك أصبح زوجها أنيلاي هو الحاكم، وقد قام هذا الأخير، برعونة، باجتياح إمارة ميثريدات الذي كان من أشراف الفرثيين، كما كانت زوجته بنت الملك الفرثي أرطبان الثالث، ولما حاول ميثريدات استرداد الأرض التي اغتصبها منه أنيلاي، من خلال تجنيد حملة عسكرية، لكن أنيلاي استطاع على حين غفلة أن يغزو معسكر ميثريدات وأن يدمر جيشه ويأسره شخصيا، وقام أنيلاي بتعرية ميثريدات وجلده على مرأى من الشعب، وقام بوضعه على ظهر حمار ليدور به وهو عار متألم، ثم بعد هذه الإهانة قام بإطلاق سراحه، وقد قام ميثريدات بتجهيز جيش كبير استطاع أن ينتصر على جيش (عصابة) أنيلاي الذي كان قد ذهب ليلاقي جيش ميثريدات، ولما عاد أنيلاي منهزما حاول الانتقام من أهل بابل، وقد قام البابليون (من غير اليهود) ليلا بمباغتة عصابة أنيلاي وقتلوهم جميعا، وخوفا من أن ينتقم الشعب البابلي من اليهود فقد هاجر اليهود نحو مدينة سلوقية على نهر دجلة، وهناك، وبعد خمس سنوات من إقامتهم، وبسبب انكشاف مؤامرات يهودية لدق إسفين الشقاق بين سكان سلوقية اليونانيين، وبين السريان، فقد اتفق الطرفان المتنازعان على استئصال المهاجرين اليهود، فقاموا بمهاجمتهم وقتلوا منهم خمسين ألف إنسان، أما من استطاع من اليهود أن ينجو بروحه، فقد التجأ إلى مدينة طيفسون عاصمة الفرثيين، وهي المدينة المقابلة لسلوقية على العدوة الأخرى من نهر دجلة، وقد بقي وضعهم قلقا، ولما استطاع إمبراطور روما تراجان أن يخضع المنطقة له، وأن يتابع فتوحاته نحو الخليج العربي، وفي تلك الأثناء حصل تمرد على الحكم الروماني، وقد شارك فيه اليهود، فعادت قوات روما بالتنكيل بالجميع بما فيهم الطائفة اليهودية.

تواريخ مرحلة السبي البابلي حسب دائرة المعارف الكتابية:

٦٠٦ ق.م نبوخذ ناصر يغزو فلسطين - السبي الأول وكان يضم دانيال ورفاقه الثلاثة

٦٠٤ ق.م موت نبوبولاسار وارتقاء نبوخذ ناصر العرش.

٥٩٨ ق.م تمرد يهوياقيم، وغزوة نبوخذ ناصر ليهوذا.

الحكم القصير للملك يهوياكين وأسره إلى بابل

٥٩٧ ق.م السبي الثاني إلى بابل وبه حزقيال.

٥٩٧ ق.م ارتقاء صدقيا لعرش يهوذا كآخر ملوك يهوذا.

٥٩٢ ق.م بداية خدمة حزقيال النبي.

٥٨٦ ق.م سقوط أورشليم والسبي الثالث.

٥٨٥ ق.م مقتل جدليا، وهروب بعض اليهود إلى مصر.

٥٧٢ ق.م آخر نبوءة لحزقيال.

٥٦١ ق.م إطلاق سراح يهوياكين من السجن.

٥٦١ ق.م موت نبوخذ ناصر وتولي أويل مردوخ عرش بابل.

٥٥٥ ق.م تولي نبونيداس العرش وهو أبو بيلشاصر.

٥٤٢ ق.م بيلشاصر يشارك أباه حكم البلاد.

٥٣٨ ق.م سقوط بابل وموت بيلشاصر.

تواريخ المرحلة الفارسية حسب دائرة المعارف الكتابية:

٦٠٠ ق.م ولادة قورش على الأرجح.

٥٥٦ ق.م سيادة قورش على عيلام وفارس.

نحو ٥٥٠ اتحاد فارس ومادي.

٥٤٥ ق.م انتصار قورش على كروسيوس ملك ليديا.

٥٣٨ ق.م استيلاء الفرس على بابل.

٥٣٦ ق.م رجوع اليهود إلى أورشليم بأمر قورش.

٥٢٧ ق.م موت، أو مقتل قورش واعتلاء قمبيز العرش.

٥٢٥ ق.م قمبيز يفتح مصر.

٥٢١ ق.م داريوس هستاسبيس يعتلي عرش فارس.

٥٢٠ ق.م خدمة حجي وزكريا النبيين.

٥١٦ ق.م	الانتهاء من بناء الهيكل (السنة السادسة
٤٩٠ ق.م	هزيمة داريوس علي يد اليونان في ماراثون.
٤٨٦ ق.م	اعتلاء احشويروش العرش.
نحو ٤٨٠	أحداث سفر أستير.
٤٦٥ ق.م	ارتقاء ارتحشستا الأول للعرش.
٤٥٨ ق.م	عودة عزرا وجماعته من بابل.
نحو ٤٥٠	تاريخ كتابة سفر ملاخي على الأرجح.
٤٤٥ ق.م	عودة نحميا لأول مرة إلي أورشليم وإصلاح أسوار
٤٣٣ ق.م	رجوع نحميا إلي بلاد فارس.
٤٣٢ ق.م	عودة نحميا مرة ثانية إلى أورشليم.
٤٢٤ ق.م	موت ارتحشستا الأول.
نحو٤٠٠ق.م	موت نحميا.

أحداث في أورشليم	التاريخ ق.م	ملوك فارس	التاريخ ق.م
المحاولات الأولى لبناء	٥٣٧	كورش	٥٣٩-
		قمبيز	٥٣٠-
إعادة بناء الهيكل	٥٢٠-	داريوس الأول (هستابس)	٥٢٢-
		أحشويروش الأول	٤٦٨-
ارتحشستا يرسل عزرا إلى أورشليم	٤٥٨	أرتحشستا الأول (لونجمانوس)	٤٦٥- ٤٢٤
نحميا يعين واليا على يهوذا	٤٤٥-		
رسائل اليهود في جزيرة الفنتين إلى يوحنان رئيس الكهنة في أورشليم، وإلى بغواس حاكم اليهودية.	٤١٠، ٤٠٧	داريوس الثاني (نوش)	٤٢٣- ٤٠٤
		ارتحشستا الثاني (منيمون)	٤٠٤-
		ارتحشستا الثالث (أوكس)	٣٥٩-

أحـــداث فـــي أورشـــليم	التـــاريخ ق.م	ملـــــــوك فـــــــارس	التـــاريخ ق.م
		ارســـــــــــــــيزر	٣٣٨-
		داريـــــــوس الثالـــــث	٣٣٦-
		(كودومـــــــــــــانوس)	٣٣١

شخصيات السبي

النبي حزقيال:

يُعَدّ النبي حزقيال بن بوزي (ذو الكفل) من الأنبياء الأربعة الكبار، وكان النبي والكاهن والرسول حزقيال، وحسب ما يذهب إليه الجميع، قد ذهب مع أول سبي إلى بابل في سنة ٥٩٧ قبل الميلاد أثناء حكم الملك يهوياكين (٥٩٨ - ٥٩٧)، وهو بعمر نحو ٢٥ سنة، وسكن على ضفة نهر الخابور (وهو غير نهر الخابور في شمال وادي الرافدين) في منطقة اسمها تل أبيب = تل السنابل، والذي يعتقد أنه تل أبان الحالي بالقرب من نيبور، وكان حزقيال يتابع أخبار أورشليم بحسرة وهو في تل أبيب قبل أن يتم تدميرها النهائي، حيث كان اليهود يمرون بأسوأ حالاتهم، بعد أن تركوا عبادة يهوه، وراحوا يعبدون آلهة متعددة «تمثال الغيرة هذا في المدخل وقال لي يا ابن آدم هل رأيت ما هم عاملون. الرجاسات العظيمة التي بيت إسرائيل عاملها هنا لإبعادي عن مقدسي.. أرأيت يا ابن آدم ما تفعله شيوخ بيت إسرائيل في الظلام كل واحد في مخادع تصاويره.. هناك نسوة جالسات يبكين.. وهم ساجدون للشمس نحو الشرق».

وقد تنبأ بسقوط ودمار أورشليم، وكل ممالك الشرق القديم على يد البابليين، وهي نفس النبوءات التي أتى بها كل من إشعيا، وإرميا، اللذين عاصرا حزقيال وجميعهم عاصر وتنبأ في محيط السبي البابلي، وكانوا السند الروحي للشعب اليهودي من خلال تبشيرهم بالخلاص على يد المسيح، ولكن، وبينما كان إرميا وإشعيا قد جعلا من بني إسرائيل زوجة للرب، فإن حزقيال قد جعل من أورشليم زوجة زانية للرب الذي كان شديد الغيرة عليها، ولذا حقت عليها العقوبة.

وقد أوّل الكثير من أنبياء السبي سبب هزيمة اليهود التاريخية إلى أن زوجتي الرب يهوه (إسرائيل ويهوذا) قد خانتاه مع آشور ومصر وبابل، ولذا حل عليهما غضب الرب لا لأنهما الأسوأ بين الشعوب بل لأنهما الأفضل بين الشعوب، ولكنه، ومن أجل عودة رضى الرب، فما على المسبيين سوى التوبة إلى الرب، والذي بدوره سيتقبل هذه التوبة، ويغفر لأبنائه أخطاءهم، ومن الطريف ذكره أن حزقيال كان يأكل خبزا مخبوزاً على وقود مصنوع من البراز الإنساني، كما سيأكل بنو إسرائيل خبزهم في الشتات بين الأمم، ولما رفض حزقيال ذلك استبدل له الرب البراز البشري بروث البقر.

وقد كان لحزقيال الأثر الكبير في لم وجهاء اليهود حوله بما يمتلكه من قوة الخطابة، وقام بتنظيم المسبيين، وتهيئتهم، وزرع أساسات العودة إلى الأرض الموعودة، وساهم بتشكيل نحن جمعية يهودية، وزرع الأمل في شعب الله المختار الذي سيعود إلى فردوسه المفقود بعد أن يتوب إلى ربه يهوه.

ويُعَدّ سفر حزقيال مصدر خامس مستقل من مصادر التشريع التوراتي ذو عقلية كهنوتية إسرائيلية، ويبدو أن حزقيال لم يكن مطلعا على المصدر الكهنوتي اليهودي في أسفار التوراة، أو، وبدقة أكبر، كُتب سفر حزقيال في مرحلة سابقة على تحرير أسفار

التوراة الخمسة الأولى، ولذا فقد جاء حزقيال بديانة يهودية كهنوتية جديدة، والغريب أنه كان يرى أن أهم ثلاثة أنبياء هم نوح، ودانيال، وأيوب «وكانت إليّ كلمة الرب قائلة. يا ابن آدم إن أخطأت إلي أرض وخانت خيانة فمددت يدي عليها وكسرت لها قوام الخبز وأرسلت عليها الجوع وقطعت منها الإنسان والحيوان وكان فيها هؤلاء الرجال الثلاثة نوح ودانيال وأيوب فإنهم إنما يخلصون أنفسهم ببرهم» حزقيال ١٤.

ويُعَدّ حزقيال موسى السبي التشريعي، بل يمكن النظر إليه على أنه قاد انقلابا، أو قام بحركة تصحيحية على الديانة اليهودية «وأعطيتهم أيضا فرائض غير صالحة وأحكاما لا يحيون بها ونجستهم بعطاياهم إذ جازوا في النار كل فاتح رحم لأبيدهم حتى يعلموا أني أنا الرب» حزقيال ٢٠.

كما يمكن اعتبار سفر حزقيال هو المصدر الإسرائيلي الذي تم تهويده بعد أن كان قد تم تدوينه بالقلم الإسرائيلي، وهو يقابل سفر اللاويين ذا المصدر اليهوي، ومن المعروف أن هناك قرابة شديدة بين سفر حزقيال وسفر اللاويين وهما يعكسان بيئة واحدة، وأنا اعتقد أن النبي حزقيال كان إسرائيليا، ولم يكن يهوديا، ولذا نجد أنه يلقب نفسه بابن آدم، وليس ابن يعقوب، وكان على غرار باقي أنبياء السبي يذكر الله باسم إله إسرائيل، كما أن خطابه كان يوجهه إلى بيت إسرائيل، وليس بيت يهوذا، كما أن اسمه ذو مصدر إسرائيلي، وسفره من الأسفار الأصيلة التي لم تعبث أيدي المحررين بها كثيرا، سوى أعمال التهويد، ومن هنا فقد كان سفر حزقيال من الأسفار المتماسكة من حيث بنيته النصية، كما أن نبوءاته عن مصر التي لم تتحقق تؤكد بأن سفره لم يعبث به المحررون، ولو فعلوا ذلك لكانوا حذفوا، أو عدلوا في نبوءاته بما ينساق مع ما حدث تاريخيا.

وقد وضع حزقيال أسسا جديدة لبناء مملكة إسرائيل الدينية الكهنوتية، حيث ستعود مملكة إسرائيل إلى الوجود بقيادة المسيح، وقد منح الكهنة الدور القيادي فيها، ووضعهم على أعلى سلم القيادة، وأكد على ضرورة القيام بالشعائر الكهنوتية، على اعتبار أنه سليل الكهنة، «افتح فمك وكل ما أنا معطيكه. فنظرت وإذا بيد ممدودة إلي وإذا بدرج سفر فيها. فنشره أمامي وهو مكتوب من داخل ومن قفاه وكتب فيه مراث ونحيب وويل.. ففتحت فمي فأطعمني ذلك الدرج الذي أنا معطيكه. فأكلته فصار في فمي كالعسل».

وكان حزقيال قد أظهر الرب بشكل أكثر سموا مما أتى في أسفار توراة موسى، فكان يصفه بأنه السيد المطلق على كل الخليقة، وإن كان له اهتمام خاص بشعبه المختار تمثّل في سكنه بين ظهرانيهم، وبذلك فقد حجّم في هذا الموقع عالمية الرب يهوه، وأعاده إلى عنصريته القبلية، بعد أن كان الأنبياء السابقون وعلى رأسهم إرميا، وإشعيا قد وسعوا حدود مملكة يهوه نحو العالمية، وحسب ما اعتقد فإن كل مظاهر العنصرية في سفر حزقيال قد أُدخل إلى السفر بعد أن تم تهويده على يد الكهنوت اليهودي من التراث الإسرائيلي.

قد حاول حزقيال في السبي البابلي أن يقوم بنفس ما قام به موسى في متاهة سيناء، فجاء بشريعة جديدة، أو بالأحرى قام بتعديلات على شريعة موسى وأتى بإضافات جديدة، وقد اهتم وأكد على أهمية القيام بالشعائر والطقوس الدينية الكهنوتية، كما أنه غيّر في مقاسات الهيكل المقدس، وعلى ما يبدو أن حزقيال هو الذي أدخل فكرة الكروبيم (الملاكين)

الذي يغطي تابوت الرب، ثم تم تبنيه من قبل محرري التوراة ووضعوه في أسفار توراة موسى.

كما أن حزقيال أعاد تقسيم بلاد كنعان بين الأسباط الاثني عشر بشكل مغاير لما أتت به أسفار التوراة، كما أنه غيّر في خارطة الأرض الموعودة {وهي تطابق إلى درجة ما حدود الدولة الصهيونية الحالية}: «هكذا قال السيد الرب. هذا هو التخم الذي به تمتلكون الأرض بحسب أسباط إسرائيل الاثني عشر. يوسف قسمان وتمتلكونها أحدكم كصاحبه التي رفعت يدي لأعطي آباءكم إياها وهذه الأرض تقع لكم نصيبا. وهذا تخم الأرض نحو الشمال من البحر الكبير طريق حثلون إلى المجيء إلى صدد حماة وبيروثة وسبرائم التي بين تخم دمشق وتخم حماة وحصر الوسطى التي على تخم حوران. ويكون التخم من البحر حصر عينان تخم دمشق والشمال شمالا وتخم حماة وهذا جانب الشمال. وجانب الشرق بين حوران ودمشق وجلعاد وأرض إسرائيل الأردن. من التخم إلى البحر الشرقي تقيسون. وهذا جانب المشرق وجانب الجنوب يمينا من ثامار إلى مياه مريبوت قادش النهر إلى البحر الكبير وهذا جانب اليمين جنوبا. وجانب الغرب البحر الكبير من التخم إلى مقابل مدخل حماة. وهذا جانب الغرب. فتقتسمون هذه الأرض لكم لأسباط إسرائيل. ويكون أنكم تقتسمونها بالقرعة لكم وللغرباء المتغربين في وسطكم الذين يلدون بنين في وسطكم فيكونون لكم كالوطنيين من بني إسرائيل» حزقيال ٤٧.

كما أنه خصص الكهانة من اللاويين لنسل الكاهن صادوق بن أخيطوب بالذات، وهو الذي شغل منصب الكاهن الرسمي في مرحلة المملكة المتحدة، وأهم ما أتى عليه من تغيّر ضمن التشريع الموسوي عبارة الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون أو «لأني أنا يهوه، إلهك، إله غيور أتفقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي» الخروج ٢.

أما في سفر حزقيال فقد جاء «وكان إلي كلام الرب قائلا. ما لكم أنتم تضربون هذا المثل على أرض إسرائيل قائلين الآباء يأكلون الحصرم وأسنان الأبناء ضرست. حي أنا يقول السيد الرب لا يكون لكم من بعد أن تضربوا هذا المثل في إسرائيل. ها كل النفوس هي لي. نفس الأب كنفس الابن. كلاهما لي. النفس التي تخطئ هي تموت.. الابن لا يحمل من إثم الأب والأب لا يحمل من إثم الابن. بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون» حزقيال ١٨.

ولكن إذا ما عدنا إلى سفر التثنية فإننا نقرأ «لا يُقتل الآباء عن الأبناء، ولا يُقتل الأبناء عن الآباء. كل إنسان بخطيئته يُقتل» التثنية ٢٤.

وسفر التثنية يُعَدّ النواة الأولى للتوراة، ومن هنا، فيمكن لنا أن نفترض أن حزقيال لم يكن مطلعا على سفر التثنية، بحيث كان حزقيال يعتقد أنه أوجد تشريعا جديدا حول توريث إثم الخطيئة، أو أن هذه الفقرة قد تم دسها في سفر التثنية بعد تحرير سفر حزقيال، وهذا التشريع، أو هذا النهج التشريعي يتماثل مع ما جاء به كل من إرميا وإشعيا، ومن هنا فإن حزقيال يقول «ما لكم أنتم تضربون هذا المثل على أرض إسرائيل قائلين الآباء يأكلون الحصرم وأسنان الأبناء ضرست»، فحسب حزقيال فإن هذه المقولة ذكرها على أنها كانت مثلا يتدحرج على ألسنة الشعب، ولم

يتحدث على أنه كلام الرب، أو يشير إلى أنه مدون في سفر توراتي، وهذا ما يزيد من الحجج التي تدعم المقولة التي تذهب إلى أن التوراة قد تم تجميعها من الأساطير، والخرافات، والقصص، والحكايات الشعبية، والأمثال من على الألسن، وتم تدوينها في مرحلة السبي وما بعدها.

أما بالنسبة للعقائد الرئيوية المسيحية، ببعدها السياسي القومي، والتي بشر بها أنبياء السبي (عاموس، هوشع، إشعيا، إرميا، حزقيال، زكريا)، لتدعيم المشاعر القومية، فقد تباين الأنبياء في تحديد مفهوم وشخصية المسيح وانتمائه، فبينما كان يتحدث بعض الأنبياء عن المسيح على أنه سيجيء ليخلص البشرية جمعاء، حصر البعض وظيفته بتخليص الشعب اليهودي فحسب، والأغلبية جعلوه مخلصا للبشرية ككل مع اعتبار اليهود حالة خاصة، وكان حزقيال من أوائل الأنبياء الذين بشروا به، ووصفه بالملك، والذي لن يكون مخلصا لإسرائيل فحسب، بل سيكون خلاصا لكل العالم، والجدير ذكره أن عقيدة المسيح في سفر حزقيال لم تكن متبلورة بشكل واضح، بل كانت في تشكيلاتها الأولى، الأمر الذي يشير إلى أن سفر حزقيال كتب في مراحل سابقة على كتابة باقي الأسفار التوراتية، وتحديدا منها الأسفار الرئيوية، «هكذا قال السيد الرب وآخذ أنا من فرع الأرز العالي وأغرسه وأقطف من رأس خراعيبه غصنا وأغرسه على جبل عال وشامخ. في جبل إسرائيل العالي أغرسه فينبت أغصانا ويحمل ثمرا ويكون أرزا واسعا فيسكن تحته كل طائر كل ذي جناح يسكن في ظل أسكانه. فتعلم جميع أشجار الحقل أني أنا الرب وضعت الشجرة الرفيعة ورفعت الشجرة الوضيعة ويبست الشجرة الخضراء وأفرخت الشجرة اليابسة أنا الرب تكلمت وفعلت.» حزقيال ١٧.

والجدير ذكره أيضا أن حزقيال كان يلقب المخلص بـ (داود)، «ها أنذا آخذ عصا يوسف التي في يد أفرايم وأسباط إسرائيل رفقاءه وأضم إليها عصا يهوذا وأجعلهم عصا واحدة.. أخلصهم من كل مساكنهم التي فيها أخطأوا وأطهرهم فيكونون لي شعبا وأنا أكون لهم إلها. وداود عبدي يكون ملكا عليهم ويكون لجميعهم راع واحد فيسلكون في أحكامي ويحفظون فرائضي ويعملون بها. ويسكنون في الأرض التي أعطيت عبدي يعقوب إياها التي سكنها آباؤكم بها ويسكنون فيها هم وبنوهم وبنو بنيهم إلى الأبد وعبدي داود رئيس عليهم إلى الأبد» حزقيال ٣٧، وهذا ربما يعيدنا إلى شخصية داود ملك المملكة المتحدة، حيث كنا قد ذكرنا أن داود هو صفة وتعني المحبوب، وليس اسما، وقد تم نسج قصته التوراتية من عدد من الخيوط المتنوعة، وقد جعلوا منه مخلصا لبني إسرائيل، ومجمعا لشملهم المتفرق الذي عانوا منه في عهد القضاة، وداود هذا سوف يعود ثانية ليعيد تجميع بني إسرائيل ثانية من الأماكن التي سيتشتتون بها، ويعيدهم إلى الأرض المقدسة، وسيحدث بعد المعركة الكونية التي سينتصر بها ياجوج وماجوج في يوم الرب، الذي جاء له حزقيال بمفاهيم جديدة، بل وضع له عقيدة على غاية من الأهمية وهي عقيدة القيامة (قيامة الأموات) «أيتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الرب. هكذا قال السيد الرب لهذه العظام. ها أنذا أدخل فيكم روحا فتحيون. وأضع عليكم عصبا وأكسبكم لحما وأبسط عليكم جلدا وأجعل فيكم روحا فتحيون وتعملون أني أنا الرب.. ها أنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي وآتي بكم إلى أرض إسرائيل» حزقيال ٣٧.

كما أنه ساهم في بلورة عقيدة العقاب والثواب اليهودية «وأنت يا ابن آدم فكلّم بيت إسرائيل وقل. أنتم تتكلمون هكذا قائلين. إن معاصينا وخطايانا علينا وبها نحن فانون فكيف نحيا. قل لهم. حي أنا يقول السيد الرب إني لا أُسرّ بموت الشرير بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا. ارجعوا ارجعوا عن طرقكم الرديئة. فلماذا تموتون يا بيت إسرائيل. وأنت يا ابن آدم فقل لبني شعبك. إن بر البار لا ينجيه في يوم معصيته والشرير لا يعثر بشرّه في يوم رجوعه عن شره ولا يستطيع البار أن يحيا ببره وأَثِمَ فبره كله لا يذكر بل بإثمه الذي فعله يموت. وإذا قلت للبار حياة تحيا. فاتكل هو على بره وأَثِمَ فبره كله لا يُذكر بل بإثمه الذي فعله يموت. وإذا قلت للشرير موتا تموت. فإن رجع عن خطيته وعمل بالعدل والحق. إن رد الشرير الرهن وعوّض عن المغتصب وسلك في فرائضي الحياة بلا عمل إثم فإنه حياة يحيا» حزقيال ٣٣.

وأخيرا فقد عرف أن كل نبي من الأنبياء اليهود قد وجه أحقاده على شعب من شعوب الشرق الأدنى القديم، وقد وجه حزقيال أحقاده على مصر، التي وصفها بـ (عكاز قصب لبيت إسرائيل)، وقد وقف إلى جانب البابليين ضد المصريين «وأشتت المصريين بين الأمم وأذريهم في الأراضي. وأشدد ذراعي ملك بابل وأجعل سيفي في يده. وأكسر ذراعي فرعون فيئن قدامه أنين الجريح. وأشدد ذراعي ملك بابل. أما ذراعا فرعون فتسقطان أني أنا الرب حين أجعل سيفي في يد ملك بابل فيمده على أرض مصر. وأشتت المصريين بين الأمم وأذريهم في الأراضي فيعلمون أنا الرب» حزقيال ٣٠.

«يا ابن آدم ارفع مرثاة على فرعون ملك مصر وقل له. أشبهت شبل الأمم وأنت نظير تمساح في البحار. اندفقت بأنهارك وكدرت الماء برجليك وعكّرت أنهارهم. هكذا قال السيد الرب.. سيف ملك بابل يأتي عليك. بسيوف الجبابرة أسقط جمهورك. كلهم عتاة الأمم فيسلبون كبرياء مصر ويهلك كل جمهورها» حزقيال ٣٢.

لا يعرف كيف، ومتى مات النبي حزقيال، الذي دفن في قبره المهيب في قرية الكفل على نهر الفرات، ويرى البعض أنه لقب بـ (ذو الكفل) لأنه كَفِل الشعب اليهودي في مرحلة السبي البابلي.

دانيال:

يُعَدّ دانيال أحد الأنبياء الأربعة الكبار، وحسب أحمد سوسة فقد تم استقدام عائلته إلى بابل في السنة الأولى لحكم نبوخذ ناصر سنة ٦٠٥ قبل الميلاد، أي قبل السبي الأول بثماني سنوات، وكان عمر دانيال آنذاك خمس سنوات فقط، وقصته غالبا هي أسطورة مهودة متناصة مع قصة يوسف، ففي بابل، وفي مرحلة يفاعة دانيال تم اختياره ليكون أحد غلمان قصر الملك نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ق.م)، إضافة إلى غلامين يهوديين هما حنانيا وميشائيل، واللذين غيرت أسماؤهم اليهودية إلى أسماء بابلية، فكان اسم دانيال هو بلطشاصر، وكان رئيس الخصيان يدير شؤونهم، خاصة بالنسبة لتغذيتهم التي كانت تتم بأفضل وأغنى أنواع الطعام التي تساعد على تكوين أجساد ملائمة لهم، وقد لمع من بين

الغلمان دانيال من خلال معرفته وتفسيره لأحد أحلام نبوخذ نصر (كما حصل مع يوسف وفرعون مصر)، وقد عينه نبوخذ ناصر رئيس الولاة على جميع حكماء مدينة بابل، وقد تكررت نفس القصة مع بلشاصر بن نبونيدس، حيث فسر له كتابات ظهرت على جدار القصر، الأمر الذي زاد من منصبه السابق، وجعله رئيس حكماء المملكة كاملة، وفي نفس الليلة، وحسب تفسيره للطلاسم التي ظهرت على الجدار، قُتل بلشاصر بن نبونيدس، وسقطت المملكة بيد قورش الفارسي، وقد رفّع داريوس المادي (٥٢٢ - ٤٨٥ق.م) من منصب دانيال حيث عينه وزيرا من بين ثلاثة وزراء مهمتهم مراقبة ميزانية المملكة، وقد استطاع دانيال أن يتجاوز مكائد زميليه بعد أن أظهر تفوقه عليهما، ولكنه وبعد أن ضُبط يصلي لربه يهوه، وطبقا لأحكام فارس فقد حُكم عليه بأن يلقى في جب للأسود، والتي بسبب إيمانه لم تقم بإيذائه، ومن أجل ذلك أمر الملك بإلقاء أعدائه الذين وشوا به في نفس الجب.

قصة النبي دانيال لا تقدم أي شيء بالنسبة إلى التاريخ التوراتي في السبي بشكل مباشر، بل إن محررها كان جاهلا شيئا ما بالحيثيات التاريخية لتلك الفترة، والذي ذكر بيلشاصر على أنه ابن نبوخذ ناصر، كما جاء في سفره أن بابل سقطت على يد داريوس المادي بدل قورش الفارسي، ويعتقد سبينوزا، ونيوتن، وسواهم أن الجزء الأول من سفر دانيال مقتبس من الآداب الرافدية، وتحديدا من التراث البابلي، أما القسم الثاني فقد كتب في عهد أنتيجونس أبيفانس (١٧٥ - ١٦٤ق.م)، وحسب رأي سيد القمني وغيره من الباحثين، فقد تم تحرير سفر دانيال تحديدا بين سنة ١٦٨، وسنة ١٦٤ قبل الميلاد، وقد أعتمد الباحثون في تحديد تاريخ كتابة السفر، من خلال رصد الخلفية التاريخية، وهواجس محرر السفر، وأيضا على لغته، حيث دوّن السفر باللغتين العبرية والآرامية وهي من ميزات القرن الثاني قبل الميلاد، كما ورد فيه ذكر آلات موسيقية بأسمائها اليونانية، وحسب اعتقادي فإن أسطورة دانيال التوراتية، أسطورة قديمة تم تأريخها، وتهويدها في العهد اليوناني من قبل محررين ليس لديهم دراية تاريخية جيدة بالمرحلة الكلدانية الفارسية، وكان النبي حزقيال قد اعتبر دانيال أحد أهم الأنبياء إلى جانب نوح، وأيوب.

وسفر دانيال، كسفر حزقيال ساهم ببلورة عقيدة الثواب والعقاب في اليهودية، وهو الذي فتح أبوابا أولية لدخول مفهوم القيامة الذي ستحدث بشكل واقعي، تاريخي ضمن الزمكان الإنساني، كما وتحدث السفر أيضا عن آخر الأيام، بل وأنه يُعَدّ من الأسفار الرئيوية المهمة «في ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك ويكون زمان ضيق لم تكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت وفي ذلك الوقت ينجّي شعبك كل من يوجد في السفر. وكثير من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي. والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور» دانيال ١٢.

زربابل:

بعد أن كان قورش قد استصدر مرسوما سنة ٥٣٨ قبل الميلاد ينص على السماح لليهود بالعودة إلى أورشليم، قام ملك فارس داريوس ابن قمبيز (٥٢٢ - ٤٨٥ق.م) بتعين

زربابل واليا على أورشليم، وزربابل هو ابن شلائيل بن يهوياكين ملك يهوذا (من نسل الملك داود) وكان اليهود يعتقدون أنه المسيح المنتظر، والذي من نسله جاء يوسف النجار الذي نسب إليه المسيح ابن مريم، ويرى البعض أن زربابل هو اسم آخر لشيشبصر، وكان للكثير من شخصيات السبي، وبخاصة منهم الشخصيات التي تبوأت مناصب مهمة في الدولة البابلية، اسمان أحدهما يهودي، والآخر بابلي مثل: (هاداسا - أستير) (زر بابل - شيشبصر) (دانيل - بلطشاصر)، وقد ذكر المؤرخ اليهودي يوسفوس أن زربابل كان صديقا للملك داريوس الذي عينه واليا على أورشليم.

وقد عاد زربابل إلى أورشليم ومعه يشوع الكاهن، ومعه مقتنيات الهيكل التي كان البابليون قد أخذوها، ومعه ٤٢٣٦٠ يهوديا، و٧٣٣٧ خادما، و٢٠٠ من المغنين، وفي أورشليم وضع زربابل أساسات الهيكل في حدود سنة ٥١٦ قبل الميلاد، ويبدو أن أعمال البناء قد توقفت بعد اعتراض الجماعات غير اليهودية، واليهودية الفقيرة على أعمال البناء، كما انضم السامريون إلى أعداء اليهود الذين كانوا يرفضون إعادة بناء المدينة، والذين رفعوا شكوى إلى الملك داريوس الذي أمر بإيقاف أعمال البناء في بيت الرب، وبعد ذلك توقفت التوراة عن ذكر زربابل، ويبدو أن طبقة الكهنة والأنبياء قد سيطروا على القيادة، وهمشّوا دور زربابل السياسي، وعلى رأسهم الكاهن يهوشع بن يهوصادق، والنبي حجي، والنبي زكريا الذي قام بإلباس يهوشع بدل زربابل التاج الذهبي الذي كان يهود بابل قد بعثوا به إلى أورشليم، وهو الذي، حسب رأي البعض، قاد زربابل إلى اتخاذه قرار العودة إلى بابل، ولكن كمال الصليبي يعتقد أن الكهنة الصدوقيين، الذين قاموا بتأريخ تلك المرحلة، هم من قاموا بإخفاء نهاية زربابل، ممثل السلطة السياسية اليهودية، بحيث احتل الكهنة (السلطة الدينية اليهودية) دور قيادة اليهود في مرحلة ما بعد العودة من السبي البابلي.

عزرا:

إذا كان حزقيال هو مشرّع مرحلة السبي، فإن عزرا الكاتب والكاهن الأكبر في بابل (وهو من أحفاد فينحاس بن ألعازر بن هارون)، والذي كان مستشارا في شؤون الطائفة اليهودية في قصر أرتحشستا الأول، قد أخذ الدور القيادي السياسي الأبرز في مرحلة السبي، وقد استطاع عزرا الكاتب أو الكاهن - الذين قالوا فيه إن الله لو لم يعط الألواح لموسى لأعطاها لعزرا - أن يؤسس الأمة اليهودية في مرحلة السبي البابلي، كما فعل موسى في عبودية مصر، كما ويُعَدّ عزرا مؤسس اليهودية المتأخرة، وهو الذي قام بجمع وكتابة الشفويات اليهودية، وتحرير ما كان قد أنجزه اليهود من كتابات، ومدونات، ويقال

أنه هو من استخدم الأحرف الآرامية المربعة (الخط الآشوري) والتي تطورت إلى ما يسمى بالأبجدية العبرية، وهو من أدخل أو أوجد فكرة أرض الميعاد، ويرى المختصون أن عزرا هو من كتب سفري أخبار الأيام الأول والثاني، وسفري عزرا ونحميا وجعل منها كتابا مقدسا، وكان له دور كبير في استنهاض الروح اليهودية عند المسبيين، ويُعَدّه الكثيرون أنه المؤسس الحقيقي للدين اليهودي ولليهودية.

وعزرا (والذي ورد اسمه في القرآن باسم عُزَير)، إضافة لما سبق، هو الذي أنشأ الكنيس كمكان للتعبد في بابل بدل الهيكل في أورشليم، وأسس جيل العودة، والذي أوكل بقيادة الدفعة الأولى لزربابل، أما عزرا فقد قام بقيادة دفعة أخرى إلى أورشليم سنة ٤٥٧ قبل الميلاد، بعد أن أخذ أذنا من الملك أرتحشستا الأول (٤٦٥ - ٤٣٤ق.م)، كما أخذ منه أذنا بالسماح لمن يرغب من أبناء جلدته بالذهاب معه إلى أورشليم، وقد أعطاه الملك كمية من الفضة والذهب ليعيد بناء الهيكل، إضافة إلى تبرعات أعضاء الجالية اليهودية الذين لا يرغبون بالعودة، كما منحه سلطة تعيين قضاة للشعب الذين عليهم أن يقضوا للشعب حسب الشريعة اليهودية والأنظمة الفارسية.

وفي أورشليم تابع عزرا أعمال بناء بيت الرب، كما أنه أسس الكنيس هناك أيضا، كما كان قد فعل من قَبْل في بابل، كما أنه وضع أسس قيادة جديدة تحت اسم السنهدرين، وأكد على تطبيق الشريعة بحذافيرها، وبسبب تعصبه الشديد وعنصريته وتزمته ليهوديته ووضعه القيادي، حرّم على اليهود اختلاطهم مع سواهم من الأمم والشعوب، وبخاصة منها تحريم الزواج المختلط، وعلى وجه التحديد حرّم على اليهود الزواج من غير اليهوديات، وهو على ما يبدو، من دسّ في الشريعة التوراتية تحريم هذا الزواج، فمن المعروف أن يوسف، ومن بعده موسى، ومن بعده ملوك إسرائيل الأوائل، ومن بعدهم ملوك المملكة المنقسمة قد تزوّجوا بنساء غير يهوديات، ولم تذكر التوراة اعتراض الكهنة، أو الأنبياء على هذه الزيجات.

وكان إلى جانب عزرا في مسيرته نحميا في بابل، ومن ثم في أورشليم أيضا، وقد كان نحميا ساقيا للملك ارتحشستا الأول (٤٦٥ - ٤٢٥ق.م) والذي استطاع أن يأخذ منه صكا، نحو سنة ٤٤٥ قبل الميلاد، بالعودة إلى أورشليم كوالٍ ومعه الأخشاب والمواد اللازمة لإعادة بناء الهيكل، وهناك، ومع عزرا اصطدم نحميا بالسامريين بقيادة سنبلط الحوروني، وطوبيا قائد العمونيين، والبعض يُعَدّه قائد بني عمون في شرقي الأردن، أما أنا فأعتقد أنه كان زعيم العمونيين الذين كانوا يعيشون في غربي الأردن على محيط مدينة أورشليم، أو على الأقل كان كذلك عندما عاد عزرا ونحميا من بابل إلى أورشليم، وجشم العربي حاكم القبائل العربية (إلى الجنوب من أورشليم)، ويبدو أن جبال يهوذا كانت قد وزّعت فيما بينهم في بعد السبي الكلداني ليهوذا، وعلى الرغم من مضايقات السامريين، والعمونيين، والعرب لليهود العائدين من السبي، وعلى الرغم من تذمرات اليهود من حياة التقشف، والتي ترافقت مع موجة من الجفاف زادت الأمر سوءا، فقد تابع نحميا وعزرا أعمال البناء في ظروف شديدة القسوة.

كما أن عزرا قام بإجراء إحصاء عام للعائدين من السبي بالدفعة الأولى مع زربابل، والدفعة الثانية معه، وقام عزرا بجمع اليهود في ساحة عامة ليتلوا عليهم خطابه المتزمت، ومن ثم وزّع سكناهم بحيث سكن ١٠% من اليهود في مدينة أورشليم، والباقي وزّعهم على الريف المحيط، وبعد أربع عشرة سنة قام فيها ببناء السور، ونظّم حياة العائدين من السبي، عاد إلى بابل سنة ٤٣٣ قبل الميلاد، وبعد مدة سمع، وهو في بابل، بعودة الأمور إلى سابق عهدها في أورشليم، فعاد إلى هناك ثانية ليعيد تنظيمها، وبقي مدة أربع عشرة سنة لمرة ثانية، أحلّ فيها شيئا من الاستقرار، ثم رجع ثانية إلى بابل.

وكان أهم ما قام به عزرا (الكاتب) هو كتابة وجمع وتحرير كتابات يهود السبي، وهذا العمل، وإن كان قد ساهم فيه جميع الغيورين على اليهودية في السبي البابلي، إلا أن عزرا على وجه التحديد يُعَدّ من أهم رموز تلك المرحلة الحرجة من التاريخ اليهودي، حيث في بابل تعرض اليهود إلى أزمة نفسية شديدة شابها عدة مشاعر متناقضة، أدت إلى مجموعة من الأفعال، وردود الأفعال، وانفرز عنها مجموعة من المعتقدات، والتصورات، والأفكار، والأحاسيس المتنوعة، وجميعها قادت اليهود إلى أن يقوموا بتدوين تراثهم الشفوي خشية من ضياعه في مرحلة السبي من جهة، ومن جهة ثانية لتوظيفه في عدة خدمات منها، وعلى رأسها دعم الشخصية اليهودية الجمعية التي كانت تعاني من مظاهر الانهيار، والتحلل في بابل، كما أنهم وظفوه أيضا في المرحلة الفارسية كوثيقة تاريخية، قانونية تترافع عن ادعاءاتهم التاريخية بأنهم هم أصحاب مدينة أورشليم الوحيدون.

فبعد أن احتك اليهود بالديانات السائدة في بابل، وبسبب شعورهم بالخزي من هزيمتهم، وتحت هيمنة هذيانات العظمة، والهذيانات الزورية الاضطهادية، ولمزيد من إيجاد تماسك بينهم كأقلية، كتبوا ما لديهم، وما اطلعوا عليه من قصص وحكايات وأساطير بعد أن قاموا بتهويدها، وقد ادعوا من خلال ذلك أن أورشليم الكنعانية والتي لم يكن لهم فيها سوى حصن صهيون (مدينة داود)، ويبدو أن صراعا قانونيا قد نشب على ملكية أورشليم التاريخية، بين الجماعات المسبية اليهودية، وغير اليهودية (الكنعانية على وجه الخصوص)، بعد أن سمح قورش بعودة المسبيين إلى بلادهم، وقد حاول اليهود بقيادة عزرا أن يقدموا التوراة كوثيقة تمليك تاريخية تثبت ادعاءهم بحقهم التاريخي في أورشليم، للحصول على صك العودة على اعتبار أنها كانت مدينة يهودية، كما أنهم قاموا بتطوير معتقداتهم الدينية العقيدية والتشريعية (والتي زاوجوا بينها وبين الأنظمة والقوانين الفارسية)، وبينما أخذوا من البابليين أساطير الخلق والتكوين، فقد أخذوا عن الفرس عقيدة المخلص الفارسية الزراداشتية الذي سيجيء في آخر الزمان ليخلصهم من ذلهم، ومن تفرق شملهم، وسيعيدهم من منافيهم، ومن حاضرهم المذل، إلى ممالكهم الوهمية وإلى أمجادهم المزعومة في عهد داود وسليمان.

والمسيح في اليهودية هو كل رجل يقوم الكهنة بمسحه بالزيت أو الدهن بحيث يصبح مكرسا لخدمة الرب يهوه، وقد تداخلت عقيدة المخلص الفارسية، مع عقيدة الخصب البعلية القمرية، ومع عقيدة أتون الشمسية التي كانت قد اندخلت في الديانة اليهودية في مراحل سابقة، كما أن اليهود، وبتأثرهم بالعقيدة الإثمية، ومع ناي الحنين إلى مرابع الذكريات، كتب شعراؤهم وكهنتهم مراثيهم، ودوّنوا كما شاؤوا ماضيهم، وهزيمتهم التي برروها بأنها كانت

انتقاما إلهيا بسبب ارتكابهم الآثام وابتعادهم عن تعاليم يهوه الذي تخلى عنهم بعد أن تخلوا هم عنه في البداية.

في تلك الفترة الفارسية وبجهود من عزرا، مع امتداد إلى المرحلة الهيلينية (ما بين القرن السادس والثاني قبل الميلاد) تم تشكيل مفهوم اليهودية كدين، واليهود كشعب مع اكتمال تحرير أسفار التوراة.

كما أن عزرا وبمساعدة نحميا، قام بتأسيس المجمع الأكبر المؤلف من مئة وعشرين عضوا نحو سنة ٤١٠ قبل الميلاد، وكان المجمع الأكبر يقوم بتنظيم أمور الدين والدنيا بعد انتهاء السبي، كما أنه قام بدور مهم في تنظيم وترتيب أسفار التوراة، واستمر المجلس بعمله حتى سنة ٢٧٥ قبل الميلاد، حيث تم تشكيل السنهدرين فيما بعد سنة ١٤١ قبل الميلاد، واستمر حتى سنة ٧٠ للميلاد، وقد قام السنهدرين بدور القيادة الدينية والاجتماعية للشعب، وهو الذي قام بمحاكمة السيد المسيح (عيسى ابن مريم)، وتم اعتباره من قبل السنهدرين أنه المسيح الدجال، وتم تسليمه إلى بيلاطس لصلبه، حسب التصور المسيحي لتاريخ المسيح، ويتألف السنهدرين من ٧٠ عضوا من الكهنة وأعيان الأسباط، والصدوقيين وبعض الفريسيين وهما من المذاهب التي برزت في المرحلة اليونانية، والرومانية، وقد فقد السنهدرين هيبته بعد خراب القدس سنة ٧٠ للميلاد، وكان قد أُلغي من قبل الرومان سنة ٥٧م للميلاد كما جاء على لسان المؤرخ اليهودي يوسيفوس، ولكنه استمر بممارسة نشاطاته بشكل سري، وبأسماء وأشكال متعددة، مع تغير الزمان، والسنهدرين كلمة من أصل يوناني يعني (المجمع العظيم) ويقابله بالعبرية الكنيست، ويُعَدّ اليهود أن أول سنهدرين قد تشكل في سيناء حسب طلب من الرب يهوه لموسى من أجل مساعدته في تنظيم قوم موسى (الحكومة اليهودية الدينية التشريعية والتنفيذية والقضائية).

وبشكل عام يُعَدّ عزرا هو مؤسس الديانة اليهودية، ويعتقد اليهود - دون تأكيد على ذلك - أن عزرا قد مات ودفن في الموقع المسمى بالعزير على بعد ٣٢ كم من مدينة القرنة.

نحميا ابن حلكيا:

أحد شخصيات السبي البارزة، كان يعمل سقّايا للملك أرتحشستا الأول في العاصمة الفارسية شوشن، وهي وظيفة لها أهميتها الخاصة في التاريخ القديم، وقد استطاع نحميا من خلال هذه الوظيفة أن يأخذ من الملك الفارسي أذنا بالعودة إلى أورشليم، وقد عيّنه أرتحشستا حاكما على مقاطعة يهودا (٤٤٤ - ٤٣٢ق.م)، وبعث معه حامية عسكرية، وكمية من الأخشاب من أجل أعمال البناء، وما أن وصل نحميا إلى أورشليم حتى بدأ ببناء السور بالتعاون مع عزرا، وقد اعترض على ذلك كل من سنبلط الحوروني وطوبيا العبد العموني، وجشم بن شهر العربي الذي يعتقد البعض أنه كان رئيس قبيلة قيدار التي كانت تنتشر في سيناء، بعد أن تم اكتشاف نقش آرامي في وادي المسخوطة بوادي الطليمات قرب الإسماعيلية يقول {نذر إلى هاب إيلات من قينو بن جشم ملك قيدار}، والقيداريون هم سكان سالع (البتراء)، ويعتقد البعض أنه كان من أهل السامرة، وأنا أعتقد أنه كان زعيم قبيلة عربية بدوية كانت منتشرة في أورشليم، ومحيطها.

وعلى الرغم من هذه الاعتراضات التي كان يتقدم بها غير اليهود من سكان البلاد، وعلى الرغم من تخوفاته من هذه الاعتراضات، فقد تابع أعمال الترميم ولكن قوى المعارضة استطاعت، ومن خلال القانون الفارسي، بعد أن قدمت شكوى إلى السلطة الفارسية، أن توقف أعمال البناء بأمر من الملك أرتحشستا إلى حين.

كما قام نحميا بالتعاون مع عزرا بتنظيم المجتمع اليهودي، حسب شريعة زاوجت بين الشريعة اليهودية، وأنظمة الإمبراطورية الفارسية، كما أنه ساهم في إقامة الشعائر الدينية بعد أن قام ببناء بيت الرب بشكل أولي، وبعد اثنتي عشرة سنة عاد نحميا إلى العاصمة الفارسية شوشن نحو سنة ٤٣٢ قبل الميلاد، وقضى هناك قرابة ثماني سنوات، ثم رجع ثانية إلى أورشليم سنة ٤٢٤ قبل الميلاد، وأعاد تنظيم الأمور ثانية، وبقي فيها إلى أن مات نحو سنة ٤٠٠ قبل الميلاد.

أستير:

أستير هو الاسم الفارسي للفتاة اليهودية المسماة هاداسا، وقد جاء في التوراة سفر باسمها، ويحكي السفر قصتها التي تقول إنه في زمان السبي، وفي شوشن العاصمة الفارسية آنذاك، وفي عهد الملك أحشيورش، حيث قام هذا الأخير بدعوة أشراف، وأعيان، وقادة مملكته، على وليمة، ولما دارت الخمرة برأس الملك بعث برسله لتحضر زوجته الملكة (وشتي) ليرى العالم جمالها، فرفضت الملكة طلبه، الأمر الذي سبب حرجا للملك، فقرر حسب نصيحة مستشاره أن يطلّقها، ومن ثم بعد مدة نصحه مستشاروه أن يجلب كل الفتيات الجميلات في المملكة لينتقي منهن زوجة له، وكان هناك شخص يهودي من الذين لم يعودوا من السبي البابلي إلى أورشليم، يدعى مردخاي، والذي كان يشغل منصب وزير للملك الفارسي أحشيورش (٤٨٥ - ٤٦٦ق.م)، ولم يكن معروفا من قِبل الملك أنه يهودي، وكان مردخاي قد ربّى ابنة عمه اليتيمة أستير في شوشن، وكانت فائقة الجمال، فدفع بها مردخاي إلى الملك أحشيورش دون أن يبين له يهوديتها، والذي أعجب بجمالها وذكائها وأصبحت الزوجة الأولى له، بعد أن كان قد طلّق زوجته الفارسية الأولى.

وبسبب خلافات بين هامان الذي كان يشكّل أحد أركان الحكم الفارسي (والذي يقال أنه من أصل عربي تدمري)، وبين مردخاي (حيث كان الجميع يسجد لهامان إلا مردخاي كان لا يسجد)، استطاع هامان أن يستصدر قرارا بتحليل دم اليهود لمن شاء من أعدائهم أينما وجدوا في أنحاء الإمبراطورية الفارسية، والتي كانت تمتد من بلاد الهند حتى نهر النيل، بما فيها أسيا الصغرى، في اليوم الثالث عشر من الشهر الثاني عشر (وهو شهر آذار حسب التقويم الفارسي).

ولكن أستير الزوجة الأولى للملك أحشيورش استطاعت أن تأخذ من زوجها الملك وعدا بأن ينفذ لها كل ما تطلبه، فدعته هو وهامان إلى وليمة تعدّها في جناحها في القصر الملكي، وحينها ستقول ما هو طلبها، وفي الوليمة خرج الملك أحشيورش بعد أن ثمل من شرب الخمرة إلى الشرفة، ولما عرف هامان بنوايا أستير الانتقامية، وكان يدرك أنه وعائلته سيكونون المستهدفين، أخذ يتوسل إليها في غرفة نومها (حيث تقام الوليمة)، ولما دخل الملك، رأى هامان وهو منكب على سرير زوجته في حالة ترجي، فظن الملك أن هامان يراودها على نفسها، فغضب غضبا شديدا، ولما سأل الملك أحشيورش من أستير ما هو طلبها حسب وعده السابق لها، كشفت أستير له عن حقيقة كونها يهودية، وأخذت منه فرمانا بتحليل دم أي شعب يناصب اليهود الكراهية في الثالث عشر من الشهر الثاني عشر (آذار) في كل البلاد التي تحت حكمه، وهو يعاكس تماما الفرمان الذي كان قد أخذه هامان من قَبل.

ولما وصل الفرمان إلى كل الأقاليم التي تخضع للحكم الفارسي «كثيرون من شعوب الأرض تهودوا لأن رعب اليهود وقع عليهم».

ولما حل اليوم الموعود قام اليهود و «قتلوا من مبغضيه خمسة وسبعين ألفا. ولكنهم لم يمدوا أيديهم إلى النهب»، وقد استطاعت أستير أن تقنع الملك أحشيورش بتمديد الفرصة ليوم ثانٍ في مدينة شوشن ومحيطها، وكانت شوشن العاصمة الفارسية آنذاك (والتي تقع في

منطقة الأهواز أي عربستان شرقي البصرة) وذلك للقضاء على أبناء هامان العشرة الباقيين، وهو ما قام به اليهود.

تُعَدّ أستير بطلة قومية، ورمزا من الرموز اليهودية، على الرغم من أن السفر لا يذكر فيه اسم الرب مطلقا، أو وجود أي دور له في تلك القصة، ويذهب سملر إلى أن السفر هو نتاج خيال محض، كذلك الأمر بالنسبة لنولدكه، وكذلك درايفر الذي يستشهد بأن زوجة الملك أحشيورش كان اسمها أمسترس، كما أن أستير كانت متزامنة مع عزرا، ونحميا، ولكن لا شيء في السفرين يدل على أن أحداث سفر أستير، كانت متزامنة مع أحداث سفري عزرا ونحميا.

أما زمن كتابة السفر فيذهب بعض التوراتيين إلى أن مردخاي هو كاتب السفر، وبعضهم يعيدون كتابته إلى سنة ٤٠٠ قبل الميلاد، لكن أغلبية الباحثين يعيدون كتابته إلى محيط القرن الأول قبل الميلاد.

أستير، وأسطورة البطل:

إن قراءة سفر أستير، ودون جهد ذهني يوضح أن قصة بطلته أستير، هي نمط من أنماط أسطورة البطل بكل رموزها النموذجية الأصلية، ولكن، وبدل أن يكون البطل ذكرا، كما هو شائع، نجدها هنا أنثى، فأستير يتيمة، لم يأت السفر على ذكر أبويها مطلقا، وقد تكفل ابن عمها مردخاي بتربيتها، وكذلك الأمر بالنسبة لمردخاي، فهو مجهول الهوية اجتماعيا، وتحيط به عدة أسئلة، هل هو متزوج؟، أم عازب؟، هل كان مردخاي، وأستير يعيشان وحيدين في بيت واحد؟

وبذلك فهي ككل قصص الأبطال (شاروكين - موسى - أوديب - المسيح) تتربى البطلة أستير عند غير عائلتها.

وأستير، وبمصادفة، وبشكل مفاجئ تتحول من فتاة يتيمة، إلى ملكة في قصر يحكم العالم القديم بشكل شبه كامل، وهذا ما نجده أيضا في أسطورة البطل الذي ينتقل من حياة، إلى حياة أخرى.

وفي القصر استطاعت أن تحبط مؤامرة كان من شأنها أن تودي بحياة أبناء جلدتها في كل أماكن تواجدهم، وهو الدور الأهم الذي يقوم به البطل النموذجي، حيث ينقذ قومه، ويصبح رمزا قوميا لهم.

أما بالنسبة لأسماء أبطال الأسطورة، فأستير، هي لفظ فارسي للإلهة البابلية أشتير، أو أشتار، (عشتار، عشتاروت، عشتر، عناة، فينوس، أفروديت)، وهي تعني كوكب الزهرة، أما اسمها العبري هداسا، فيعني شجرة الآس دائمة الخضرة، وهي الشجرة التي ترمز للآلهة عشتار في الشرق القديم، وما زالت بلاد الشام تضع على شواهد القبور في الأعياد (الأضحى، والفطر)، وعيد المظال عند اليهود أغصان شجرة الآس، لأن أحباب الميت لم ينسوه، وهم يقيمون ذكراه دائما، وهي عادة قديمة تعود إلى أسطورة من أساطير الخصب، حيث يقوم أحباب الميت باسترجاعه من قبور النسيان، كما تقوم عشتار باسترجاع حبيبها بعل من بين الأموات.

أما بالنسبة لمردخاي، فهو لفظ عبري لمردوخ حبيب عشتار، أما بالنسبة لعيد البوريم الذي فيه يحيي اليهود ذكرى أستير، فما هو سوى عيد الربيع البابلي في ديانة الخصب، والذي كانوا يحتفلون فيه بعودة الإله مردوخ إلى الحياة حسب ما يذهب إليه جيمس فريزر.

وأسطورة أستير هي التصريف الأمومي الأنثوي لأسطورة الملك الأكادي شاروكين (٢٣٧١ - ٢٣١٦ق.م) {شاروكين الملك القوي ملك أكّاد هو أنا. كانت أمي كاهنة إله ولم أعرف أبي. سكن عمي في الجبال. مدينتي هي أوزوبرانو التي تقع على ضفة الفرات. أمي الكاهنة حملت بي وولدتني سرا ووضعتني في صندوق من القصب أغلقت بابه بالإسفلت ورمتني في النهر الذي حملني إلى أكي الساقي (الفلاح) الذي انتشلني. أكي البستاني جعلني ولده ورباني. أكي الساقي جعلني بستانه. عندما كنت بستانيا أحبتني عشتار. سدت وحكمت ذوي الرؤوس السوداء. خربت جبالا قوية بواسطة بلطات برونزية. صعدت الجبال العليا وعبرت الجبال السفلى. حاصرت بلاد البحر ثلاث مرات. فتحت يدي دلمون..}، لقد قامت الآلهة عشتار بمساعدة شاروكين وأدخلته إلى القصر الملكي لمدينة كيش، ثم استطاع أن يحكم على مدينة أكد القريبة من كيش، وأخيرا أصبح شاروكين ملك الملوك، وحكم على كل العالم القديم تقريبا.

وهكذا في أسطورة الملك شاروكين نجد الطفل مجهول الاسم، والأهل، والذي حمل لاحقا الاسم الرمزي شاروكين (الملك العظيم)، وبمساعدة عشتار، ومن خلال جهوده الشخصية الفذة، استطاع أن يصبح ملك الملوك، وأن يسيّد شعبه على العالم.

أما في أسطورة الملكة أستير، فنجد أستير الطفلة مجهولة الاسم، والأهل، والتي حملت لاحقا الاسم الرمزي (أستير، أو عشتار)، وبمساعدة مردخاي (مردوخ)، ومن خلال شخصيتها الآسرة، أصبحت ملكة الملكات، واستطاعت أن تنقذ شعبها من فناء محتم.

إن اليهودية كما ذكرنا، قد اعتمدت على الأسطورة لتعليل بعض الظواهر، والعادات، والطقوس والشعائر الدينية التي كانت قد اكتبستها الجماعات العبرية أثناء تجوالها، وتنقلها في أقاليم الشرق الأدنى القديم، وكي تعيد تلك الأعياد، والمناسبات، والمدن، وبعض الأسماء، إلى تاريخها، وتراثها الخاص، فقد قامت بتدبيج أساطير تبريرية، تعليلية، تأصل، وتوطد، وتأكد من خلالها على أصالة اليهودية، وعلى مركزية اليهود في التاريخ.

وكانت بعض الجماعات العبرية قد اعتنقت الديانة البعلية الكنعانية، والأتونية المصرية، والذين تهود قسم منهم، وقد أبقت تلك الجماعات على احتفالاتهم بأعيادهم البعلية، والأتونية، كما اقتبسوا بعض الأعياد من الشعوب التي كانوا يعيشون بين ظهرانيهم، ومن هذه الأعياد عيد المظال، وعيد الفوريم (عيد الربيع في الديانات البعلية على اختلاف أسمائها) التي يلعب فيها الآس دورا مهما، كرمز لانتصار الحياة على الموت «وكتب مردخاي هذه الأمور وأرسل رسائل إلى جميع اليهود في كل بلدان الملك أحشيورش القريبين والبعيدين ليوجب عليهم أن يعيدوا في اليوم الرابع عشر من شهر آذار واليوم الخامس عشر منه في كل سنة حسب الأيام التي استراح فيها اليهود من أعدائهم والشهر الذي تحول عندهم من حزن إلى فرح ومن نوح إلى طيب ليجعلوها أيام شرب وفرح» أستير ٩، وهو عيد الفوريم عند اليهود، ففي اليوم الثالث عشر من آذار، وبينما كان يجب أن يباد اليهود على يد أعدائهم، قام اليهود، وبنفس اليوم، وبواسطة أستير بإبادة هؤلاء الأعداء.

وتمثل أسطورة أستير تهويداً لأسطورة بعل وعشتار التي تستطيع أن تعيد حبيبها (البعل) من الموت إلى الحياة، أي أن أسطورة أستير هي أسطورة رافدية بكل عناصرها،

وهذا ما يفسر عدم ورود ذكر اسم الرب اليهودي يهوه في سفر أستير، لأنه كان متمثلا أصلا بكل من أستير، ومردخاي (عشتار، ومردوخ)، أما سرديتها، وحبكتها فقد تم استقراضها من أسطورة الملك شاروكين الأكادي (سرجون).

حجي:

عاش النبي حجي في مرحلة العودة من السبي، ولا يوجد أي إشارة توضح هل كان مع السبي، أم أنه انحدر من الذين بقوا في بلاد كنعان، وبرز دوره في محيط سنة ٥٢٠ قبل الميلاد، وقد عاصر زربابل والي يهوذا، ويهوشع بن يهوصادق الكاهن، وبناء الهيكل الثاني، وكان إلى جانب النبي حجي النبي زكريا، وكان دورهما الديني والسياسي شاحبا، وقد ناصر وأيد ووقف حجي إلى جانب أنصار بناء البيت، ووقف ضد الذين عارضوا أعمال البناء، ووعد الشعب بأن بناء البيت هو الذي سيجلب لهم الخير والبركة، وسيفك كربة الشعب الذي كان يعاني من سوء الحال، كما أن المسيح لن يأتي قبل أن يبنى البيت له ليكون ملكا على العالم، وقد أتت إشارات في سفر حجي إلى اعتبار زربابل هو المسيح الذي اختاره الرب، وأنا اعتقد أن حجي كان يشير في ذلك إلى الملك الفارسي ممثل الرب على الأرض، والذي قام باختيار زربابل ليكون واليا على أورشليم.

زكريا:

زامن النبي زكريا النبي حجي، وتنبأ كلاهما في نفس السنوات، وقد وقف زكريا إلى جانب زربابل ويهوشع في الجدل الذي كان دائرا حول ضرورة بناء بيت الرب في الوقت الذي يعاني فيه الشعب من حالة فقر شديد، كما أن زكريا حرض الشعب على التضامن الاجتماعي مع العائدين من السبي، وكان، ككل الأنبياء الكهنة، يؤكد على أن مملكة إسرائيل هي مملكة دينية كهنوتية لا مدنية سياسية، لذلك كان وراء صناعة تاج من الذهب في بابل، وقد كان إلى جانب وضعه على رأس يهوشع الكاهن، بدل وضعه على رأس زربابل صاحب السلطة المدنية، الأمر الذي تشارك مع عوامل أخرى في اتخاذ زربابل قرارا بالعودة إلى بابل حيث هناك اختفى ذكره، وبذلك انتهى حضور النسل الملكي على الساحة السياسية حتى مجيء السيد المسيح، وهذا ما قوى من موقف الكهنة في السيطرة على الشعب اليهودي.

أما إضافات زكريا الدينية فبرزت من خلال حديثه بصورة أكثر وضوحا عن ملائكة الرب، الذين ينتقلون أو يَصلون بين السماء والأرض، ويبلغون رسائل الرب إلى الناس عن طريق الأنبياء والرسل، كما، ككل أنبياء تلك المرحلة، تنبأ بمجيء المسيح المنتظر، كما أنه تحدث عن يوم الرب بشيء من التفصيل «فيخرج الرب ويحارب تلك الأمم كما في يوم حربه يوم القتال. وتقف قدماه في ذلك اليوم على جبل الزيتون الذي قدام أورشليم من الشرق فينشق جبل الزيتون من وسطه نحو الشرق ونحو الغرب واديا عظيما جدا وينتقل نصف الجبل نحو الشمال ونصفه نحو الجنوب. وتهربون في جواء جبالي لأن جواء الجبال يصل إلى آصل وتهربون كما هربتم من الزلزلة في أيام عزيا ملك يهوذا ويأتي الرب إلهي وجميع القديسين معك

ويكون في ذلك اليوم أنه لا يكون نور. الدراري تنقبض. ويكون يوم واحد معروف للرب. لا نهار ولا ليل بل يحدث أنه في وقت المساء يكون نور. ويكون في ذلك اليوم أن مياها حية تخرج من أورشليم نصفها إلى البحر الشرقي ونصفها إلى البحر الغربي.. ويكون الرب ملكا على كل الأرض» زكريا ١٤.

عوبيديا:

على الرغم من أن عوبيديا كان من الأنبياء الصغار، وسفره من أصغر أسفار التوراة، فهو يتألف من إصحاح واحد فقط، إلى أن الباحثين اختلفوا كثيرا، حول تزمين عوبيديا، وحول تزمين كتابة السفر، والذي على ما يبدو تم تدوينه من قبل عدة محررين، يعودون إلى أزمان متعاقبة، وكان عوبيديا قد عاصر المراحل الأخيرة من عودة المسبيين، كما أنه مع النبي المعاصر له يوئيل، حاول أن يشد على أيدي العائدين اليائسين الذين بدل أن يعودوا إلى فردوسهم المفقود، وجدوا الخرائب التي تسكنها الثعالب، وكان يرى أن هذه المعاناة هي ضرورية لمجيء يوم الرب القادم، ولكن أبرز ما في سفر عوبيديا هو توبيخه لأدوم لأنها تكبرت على يهوذا، وشمتت بسقوطها، كما تنبأ لها بالدمار «وسبي هذا الجيش من بني إسرائيل يرثون الذين هم من الكنعانيين إلى صرفة. وسبي أورشليم الذين في صفارد يرثون مدن الجنوب» عوبيديا.

ملاخي:

ظهر ملاخي، صاحب السفر الأخير في التوراة، في فترة ما بعد السبي، وحسب البعض فقد برز بعد عودة نحميا إلى أورشليم مباشرة، وكان دوره، ككل الأنبياء في تلك المرحلة، شاحبا ثانويا، ولا يتعدى إسناد ودعم الحكم الكهنوتي، ويبدو أن ملاخي كان لاويا، وكان يحرّض اليهود على دفع العشور (الزكاة) والعطايا إلى بيت الرب كي يفرجها الرب عليهم، وبدا الرب في سفر ملاخي كما لو أنه يسأل، أو حتى يتوسل من الشعب العطايا، ويطالبهم من خلال الترغيب والترهيب بحقوقه، بعد أن كانت منطقة السامرة (إسرائيل) لا تدفع إلى خزينة الرب في أورشليم، بل كانت تدفع الضرائب والعطايا والهبات إلى المعابد الكنعانية «هاتوا جميع العشور إلى الخزينة ليكون في بيتي طعام وجربوني.. إن كنت لا أفتح لكم كوى السموات وأفيض عليكم بركة» ملاخي ٣.

عقيدة العقاب.. والثواب
والمسيح، ونهاية التاريخ في اليهودية

لقد وجد الإنسان أن كل ما يحيط به يشكل خطرا على حياته ووجوده، وقد حاول الإنسان أن يجد وسيلة لتهدئة مخاوفه حتى لو كان ذلك من باب الوهم والتوهم، وقد استطاع التعامل مع المخاوف التي تعود إلى أشياء عينية مدركة كحيوانات البرية، فقام بقتلها حينا، والاختباء عنها حينا، وتجنبها حينا آخر، ولكن الأمر كان مختلفا بالنسبة لأشياء لم يستطع تشخيصها جيدا مثل البروق والرعود والزلازل والبراكين وغيرها، بخاصة تلك التي تتعلق بالسماء، وقد حاول في البداية أن يسيطر عليها، أو أن يؤثر فيها من خلال تقليدها، أو القيام بأعمال محاكاة، أو معاكسة، وهي المرحلة ما قبل الدينية (المرحلة السحرية)، والبعض يُعَدّونها المرحلة الأولى الدينية، ولما أدرك الإنسان أنه كثيرا ما كان يفشل في التأثير على تلك القوى، فقد حاول أن يتفاوض معها، وكان من أجل ذلك يقوم بتشخيصها من خلال أنسنتها وتشييئها وترميزها أو تمثيلها، وهو ما دعي بالديانة أو المرحلة الإرواحية، ومن ثم قام الإنسان بالتفاوض مع تلك القوى الرهيبة (الآلهة) ووصل معها إلى اتفاق، ونتيجة لذلك الاتفاق فقد فُرض على الإنسان أن يقدم الطاعة والخضوع - من خلال عدة شعائر وطقوس - لتلك القوى المتمثلة بالآلهة كي يحوز على رضاها، ويتجنب غضبها، كما عليه أيضا أن يقدم لها الطعام والشراب، وإلا فسيكون محط غضب من تلك القوى التي ربما تقوم بإغراقه في طوفانات عظيمة، أو ربما تبتلعه الزلازل، أو تدفنه البراكين.

وعندما تطورت البنية الاجتماعية للإنسان، بدأت تتشكل، وتتبلور لديه بعض المفاهيم الأخلاقية مثل الوجدان، والضمير (الأنا العليا)، والتي أفرزت مجموعة قيم، وسلوكيات، ونظم اجتماعية حددت، وميزت بين الفضيلة، والرذيلة، وبين المحمود، والمنبوذ، وبين ما هو مسموح، وما هو ممنوع، وهو الأمر الذي دعا إلى إفراز قيادة أو زعامة تحدد، وتحافظ، وبطريقة مباشرة، على تلك القيم، وهي المسؤولة عن تطبيق الشريعة الاجتماعية، وتنفيذها من خلال قوانين العقاب والثواب، وبما أن الزعيم أو السيد الحاضر في الأرض لا يمكنه مراقبة الجميع، ومعرفة تصرفاتهم، ومعرفة وضبط ما ينوون فعله، فقد أشرك في هذا الدور أيضا السيد الغائب الذي في السماء، والذي من ارتفاعه يمكنه أن يراقب الجميع وبشكل دقيق، بل ويمكنه أن يعرف ما ينوي الإنسان فعله، بل وإنه يعرف ما سيحدث قبل حدوثه، وبينما أوكل إلى زعيم القبيلة أو المجتمع تنفيذ شريعة العقاب والثواب بشكل مباشر في الزمكان، فقد أوكل إلى السيد الذي في السماء أن ينفذ تلك الشريعة، وبطريقته الخاصة، بشكل مباشر، أو بشكل غير مباشر في يوم ما سيجيء في المستقبل، وتبلورت في هذا السياق مفاهيم الحياة الدنيا، والحياة الأخرى، أو عالم الأحياء، وعالم الأموات، ومفهوم يوم القيامة، والجنة والنار.

وكان هناك تباينات في تصورات العقاب، والثواب بين حضارة، وأخرى، وتُعَدّ أهم الحضارات التي عالجت عالم الأموات، ويوم العقاب والثواب هي الحضارة المصرية، والتي تُعَدّ بحق حضارة الأموات بامتياز، وليس هناك من حضارة اهتمت بالموت بقدر اهتمام الحضارة المصرية، فالديانة المصرية ليست سوى معتقدات حول مفهوم الموت، حيث كان المصريون، ومنذ بداية تاريخهم، يؤمنون بيوم القيامة، وهو اليوم الذي فيه سوف يقوم الإله بحساب الإنسان لا على أفعاله في الحياة الدنيا فحسب، بل وعلى نواياه وطهارة قلبه، وهو ما يدعو الإنسان لتبني أخلاقيات نبيلة في الحياة الدنيا، والابتعاد عن الشر، والانتصار على الشيطان الذي لم يكن ذا ملامح واضحة في ذلك الزمن، والذي كان يمثله الإله سيت الذي كان يرمز له بالحمار، وأحيانا الأفعى، وأحيانا الخنزير، وأحيانا التمساح، وكان سيد الفوضى، وإفساد النظام، وهو، وإن كان شريرا لكنه لا يمثل رمزا حصريا للشر، وهو أول تمثل بدائي للشيطان في التاريخ الديني، ولكن العقيدة الأتونية من دون العقائد المصرية الأخرى لم تهتم كثيرا بعالم الأموات.

أما السومريون فكانوا من الشعوب الذين لم يولوا اهتماما لعالم الأموات، وتحديد معالمه، فقد تصوّروه عبارة عن عالم أسود مجهول، كذلك الأمر بالنسبة للديانة الأتونية التي همشّت التصورات الأخروية.

أما في اليهودية، ولأنها تحوي في طبقاتها العميقة تصورات دينية ثقافية ورثتها عن السومريين، وتصورات دينية ثقافية اكتسبتها من العقيدة الأتونية، فقد كانت تصوراتها عن عالم الأموات غامضة، وحسب التصور الديني اليهودي التقليدي التوراتي فإن الإنسان حين يموت يذهب إلى عالم الظلمات المجهول (الهاوية) الذي لا يوجد له أي ملامح ثابتة، وهذا العالم ليس مجهولا بالنسبة لليهود فحسب، بل للرب يهوه أيضا، وهذا الأمر يدعو للغرابة من عقيدة تُعَدّ ديانة سماوية تاريخية، ولم يحاول المعتقد اليهودي البحث في مسألة الموت إلا في مراحل متأخرة، بدأها في مرحلة السبي البابلي متأثرا بالعقيدة الزرادشتية، بعد أن كانت كل الأديان والمعتقدات الشرقية قد أمضت شوطا تطوريا كبيرا في بحثها عن ماهية (الحياة الأخرى)، ويعود ذلك إلى أن الدين اليهودي دين مادي لم يكن ليهتم كثيرا بعالم الروح الميتافيزيقي، فجل اهتمامه كان حسياً مادياً زمكانياً لا روحياً، وبذلك فإن اليهودي الذي استطاع أن يفلت من العقاب الأراضي، لن يكون في موضع المساءلة في العالم الآخر، وبذلك فإن الآباء الأوائل لن يحاسبوا على ما اقترفوه من آثام في الحياة الدنيا لغياب مفهوم يوم الحساب اللاهوتي.

وتذهب اليهودية التوراتية إلى أن العقاب والثواب هما من أعمال الحياة الدنيا، وتقع ضمن الفضاء الزمكاني، بل وداخل التاريخ، وحسب التصور اليهودي، على الإنسان أن يعمل ما هو أخلاقي كي تطول أيامه على الأرض، وكي ينعم بحياة هانئة، وكي يكون صاحب مال، وجاه، وإلا فسوف يعيش فقيرا، وتحلّ عليه الأمراض، ويموت قبل أوانه، وخير مثال على عدمية ووجودية العقيدة اليهودية هو سفر الجامعة، إضافة إلى ما جاء به سفر أيوب، وكنت قد استعرضت هذا الموضوع في سياق نقاشي لسفر أيوب، والذي جاء فيه «ليته هلك اليوم الذي ولدت فيه والليل الذي قال قد حبل برجل. ليكن ذلك اليوم ظلاما. لا يَعْتَنِ به الله من فوق ولا يشرق عليه نهار. ليملكه الظلام وظل الموت. ليحل عليه سحاب. لترعبه كاسفات النهار. أما ذلك الليل فليمسكه الدجى ولا يفرح بين أيام السنة ولا

يدخلن في عدد الشهور. هوذا ذلك الليل ليكن عاقرا لا يسمع فيه هتاف. ليعلنه لاعنو اليوم المستعدون لإيقاظ التنين لتظلم نجوم عشائه. لينتظر النور ولا يكن ولا ير هدب الصبح. لأنه لم يغلق أبواب بطن أمي ولم يستر الشقاوة عن عيني. لِمَ لَمْ أمت من الرحم. عندما خرجت من البطن لم لم أسلم الروح. لماذا أعانتني الركب ولِمَ الثدي حتى أرضع. لأني قد كنت مضطجعا ساكنا. حينئذ كنت نمت مستريحا مع ملوك ومشيري الأرض الذين بنوا أهراما لأنفسهم...» أيوب ٣.

«الهاوية بيتا لي وفي الظلام مهدت فراشي وقلت للقبر أنت أبي وللدود أنت أمي وأختي فأين إذا آمالي. من يعاينها. تهبط إلى مغاليق الهاوية إذ ترتاح معا في التراب» أيوب ١٧.

«لماذا تحيا الأشرار ويشيخون نعم ويتجبرون قوة. نسلهم قائم أمامهم معهم وذريتهم في أعينهم. بيوتهم آمنة من الخوف وليس عليهم عصا الله.. يقضون أيامهم بالخير في لحظة يهبطون إلى الهاوية.. من هو القدير حتى نعبده وماذا ننتفع إن التمسناه» أيوب ٢٢.

«لأن للشجرة رجاء. إن قطعت تخلف أيضا ولا تعدم خراعيبها. ولو قدم في الأرض أصلها ومات في التراب جذعها. فمن رائحة الماء تفرخ وتنبت فروعا كالغرس. أما الرجل فيموت ويبلى. الإنسان يسلم الروح فأين هو. قد تنفد المياه من البحرة والنهر ينشف ويجف والإنسان يضجع ولا يقوم.» أيوب.

أما في سفر الجامعة، فقد جاء فيه «قلت في قلبي الله يدين الصديق والشرير. لأن لكل أمر ولكل عمل وقتا هناك. قلت في قلبي من جهة أمور البشر إن الله يمتحنهم ليريهم أنه كما البهيمة هكذا هم. لأن ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة وحادثة واحدة لهم. موت هذا كموت ذاك ونسمة واحدة للكل فليس للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل. يذهب كلاهما إلى مكان واحد. كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما. من يعلم روح بني البشر هل هي تصعد إلى فوق وروح البهيمة هل هي تنزل إلى أسفل إلى الأرض. فرأيت أنه لاشيء خير من أن يفرح الإنسان بأعماله لأن ذلك نصيبه. لأنه من يأتي به ليرى ما سيكون بعده.» جامعة ٣.

ومن هنا فقد تخيل اليهود أن الجحيم والنعيم عالمان فيزيائيان يقعان في الزمكان المادي، بل إنهم تخيلوا الجحيم في وادي هنوم بالقرب من مدينة أورشليم، أما الجنة التي يحلم اليهود أن يعيشوا فيها في آخر الزمان، وداخل التاريخ، فتقع في بلاد كنعان، أما بالنسبة لجنة الماضي، أو جنة بداية، أو قبل بداية التاريخ، أي الجنة التي كان يعيش فيها آدم (جنة عدن) فتقع عند منابع الأنهار الأربع (فيشون، وجيحون، ودجلة والفرات)، أي أنها تقع شمال الأناضول، وهي تتطابق، من حيث التوصيف، مع الجنة السومرية، ففي نص سومري جاء:

في تلك الأيام، لم يكن هناك حية ولا عقرب ولا ضبع.
لم يكن هناك أسد ولا كلب مسعور ولا ذئب.
لم يكن هناك خوف ولا رعب.
لم يكن للإنسان منافس.
في تلك الأيام كانت بلاد شوبور، أرض المشرق،
أرض الوفرة وشرائع العدل.

وسومر، أرض الجنوب، ذات اللسان الواحد، أرض الشرائع الملكية.
وأوري أرض الشمال، الأرض التي يجد فيها كل حاجته.
ومارتو، أرض الغرب، أرض الدعة والأمان.
وكان العالم أجمع يعيش في انسجام تام،
وبلسان واحد يسبح الكل بحمد الإله إنليل}

وفي توصيف آخر لجنة دلمون، والتي يعتقد أنها تقع في جزيرة البحرين:

{في دلمون لا ينعق الغراب الأسود
وطير العتيدو لا يصيح ولا يصرخ
الأسد لا يفترس
والذئب لا يخطف الحمل
لم يعرف الكلب المتوحش الذي يلتهم الجدي
ولم يعرفوا الكوارث التي تدمر الغلة
لم توجد الأرملة
والطير من الأعالي لا يسقط
والحمامة لا تحني رأسها
ما من أحد يقول عيني مربقة
ولا مصدوع يقول في رأسي صداع
عجوز دلمون لا تقول أنا عجوز
وشيخها لا يقول أنا طاعن في السن
العذراء ليست بحاجة إلى أن تغتسل
ولا يهدر الماء الرائق في المدينة
من يعبر نهر الموت لا يتفوه بالموت
والكهنة النائحون لا يدورون حوله
المنشد لا يعول بالرثاء
وفي طرف المدينة لا ينوح ولا يندب}

وهذا التوصيف يتماثل مع التوصيف التوراتي للجنة اليهودية التي سيصل إليها العالم في آخر الزمان، أي هي أرض الميعاد التي سوف «يسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل والمسمن معا وصبي صغير يسوقها. والبقرة والدبة ترعيان. تربض أولادهما معا والأسد كالبقر يأكل تبنا. ويلعب الرضيع على سرب الصل ويمد الفطيم يده على حجر الأفعوان. لا يسوءون ولا يفسدون في كل جبل قدسي لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر. ويكون في ذلك اليوم أن أصل يسى القائم راية للشعوب إياه تطلب الأمم ويكون محله مجدا» إشعيا ٣٢.

والجدير ذكره أن هذا المكان هو مكان داخل التاريخ، أي هو ليس بالجنة أو الفردوس المفقود بمعناه المثيولوجي، بل هو المكان بجغرافيته نفسها حسب ما كان في الماضي، أي أنه (المكان هنا)، في أرض كنعان تحديدا، وهو يختلف عن الفردوس المفقود، أو أرض دلمون السومرية (التي كانت هناك في غابر الزمان)، وهذه الجنة اليهودية هي

التي كانت محور اليهودية، والتي من أجلها قام اليهود بكتابة التوراة التي تُعَدّ المنطلقات الإيديولوجية للادعاءات اليهودية التاريخية ببلاد كنعان.

لقد قامت عقيدة العقاب والثواب، وعقيدة الفردوس المفقود، بتلبية بعض الاحتياجات الروحية للإنسان في سياق تطوره الاجتماعي، كما أنها ساهمت، إضافة إلى تصورات أخرى، في تسكين حمى الهواجس، والمخاوف، التي كانت تتولد، وتلد الكثير من الأسئلة الوجودية والتي، على الرغم من بساطتها، لم يستطع الإنسان أن يجد لها إجابات مقنعة، تستطيع أن تدفن شكوكه إلى الأبد:

من أين يأتي؟

لماذا يموت؟

وإلى أين يذهب؟

وهل يمكن له الرجوع ثانية؟

وإذا ما كان الإنسان في بداية وعيه للزمان، وللتاريخ قد أرجع موته إلى الحيوانات، أو النار، أو الطوفانات، وما سواها من العوامل الأخرى المشخصة، التي كانت سببا في نهايته ضمن سياق صراع البقاء، لكنه احتار في إرجاع موته الطبيعي، الأمر الذي جعله يفكر بوجود قوى خفية غير مشخصة مسؤولة عن موته، وراح الإنسان يبحث في تشخيص هذه القوى الخفية، ولأنه لا يستطيع أن يصارعها، فقد حاول التفاوض مع هذه القوى التي افترض أنها تسكن في السماء مركز الغموض، ولكن القوى (الآلهة) لم تشأ أن تكشف له عن كنه الموت، وعن سر الخلود، وبعد لأي وجهد ومفاوضات طويلة، تم الاتفاق على أن يقبل الإنسان الموت كمنحدر لا يمكن إلا السقوط فيه، مقابل وعود من الآلهة باسترجاع الإنسان من عالم الموت إلى عالم الخلود ولكنه، ومن حينها بدأ الإنسان يهتم بدفن موتاه، فكان يوسدهم في التراب بطريقة رمزية، ذات مقاصد تصورية، كما كان يضع في المدافن بعض الحاجيات التي افترض أن الميت سيحتاجها في حياته الأخرى، كما قام أيضا بتحنيط الأموات كي يبقى الجسد محتفضا بهيئته التي سيقوم بها (يوم القيامة).

ومن جهة أخرى، وبسبب إدراك الإنسان لحقيقة موته، بدأ يدرك معنى الزمان، والمكان، وتغيرهما، وقد نظر الإنسان إلى الزمان بعد خبرة طويلة، فاكتشف أن للزمان شكلا دائريا، متكررا، وإن المكان يتغير مع مرور الزمان، وبالتالي بدأ يدرك مفهوم التاريخ الذين ينتج عن اقتران الزمان بالمكان، وبما أن الزمان له صفة دورية، فللتاريخ أيضا صفة التكرار أيضا، ولكنه ليس تكرارا ميكانيكا دوريا كما هو بالنسبة للزمان، بل تحكمه حيثيات متعددة، وتكراره يكون من خلال جوهره، لا من خلال مظهره، وهذا التكرار لا يمكن استنباطه إلا من قبل بعض الأشخاص الذين يمتازون بحالة عالية من الوعي للتاريخ وقوانينه وأنظمته، وهم الذين كانوا يدعون بالكهنة، والأنبياء فيما سبق، وكانت معرفتهم بالمستقبل منوطة بعلاقتهم بالآلهة، الذين وحدهم يعرفون دورات التاريخ كما نحن نعرف دورات الزمان.

لكل بداية نهاية، ولكل نهاية بداية جديدة، هكذا تصور الإنسان جوهر التاريخ، وهكذا حاول الإنسان ثقافيا أن يعالج قلقه، ومخاوفه من الموت القادم، فهو وإن كان سيموت كفرد، فإنه سيبعث ثانية، وكذلك الأمر بالنسبة للجماعة، فقد اعتقد بوجود نهاية للتاريخ الجمعي، ولا بد من اندثار الجماعة، وقد تصور أن رجلا في المستقبل سيجيء، وهذا الرجل هو حالة

تناص مع أحد الآباء الأوائل، أو هو انعكاس في مرآة المستقبل للأب الأول الذي كان قد أسس الجماعة في الماضي، وسيقوم هذا المخلص بجمع، من على هامش التاريخ، ما تشتت، وتفكك من الجماعة، ويقودهم ليتبوءوا مركز التاريخ، ويرجعهم من الغياب إلى الحضور، ويعيد تشكيل ماضيهم في الحاضر، وقد ذهبت الحضارات، والأديان مذاهب شتى، في مقاربتها للتاريخ، وفي تخيّلها للمخلص.

فمعتقدات الخصب البعلية اللاتاريخية، والتي تبني تصوراتها الدينية على الزمن، وليس على التاريخ، تذهب إلى أن الأرض، بعد مواتها السنوي في الخريف، ستنهض ثانية، وتنطلق فيها الحياة بعد انبعاث الإله بعل من عالم الأموات السفلي، الذي يقع في الظلمات السحيقة للأرض، إلى عالم الأحياء، والذي سيعود ثانية إلى عالم الأموات بعد صراعه الخاسر مع إله الموت، وهكذا سيستمر هذا الصراع، وسيتكرر بشكل سنوي، وهذا حال أكثر المعتقدات القديمة في الشرق الأدنى القديم، والتي كان تصورها بسيطا وأوليا عن التاريخ، أما الديانات الكبرى التاريخية، أي التي بنت تصوراتها الدينية على التاريخ، لا على الزمان الدوري، فقد كان لديها تصورات معقدة، ومكتملة، عن التاريخ، وبشكل عام فقد قَسّمت الأديان الكبرى، على تعددها، التاريخ إلى عدة مراحل:

المرحلة الأولى وهي المرحلة السرمدية، أو الطور السكوني ما قبل الوجودي حيث لا زمان، ولا مكان، ليس هناك سوى الإله المطلق فقط.

والمرحلة الثانية هي المرحلة الكوزموغونية (الزمكانية) وهي المرحلة التي جرى فيها خلق الوجود، وكان أول ما خلق الله هم الملائكة، ومنهم الشيطان، ومن ثم بدأ الله بخلق الوجود، فخلق في اليوم الأول النور، وفي اليوم الثاني خلق السماء، وفي اليوم الثالث خلق الأرض، وفي اليوم الرابع خلق الكواكب والنجوم، وفي اليوم الخامس خلق الطيور وحيوانات البحر، وفي اليوم السادس خلق حيوانات البر، والإنسان الذي قام بطرده من الجنة بسبب عصيانه الأوامر الإلهية.

أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الأصول والتنظيم (التاريخ).

أما المرحلة الرابعة فهي المرحلة الأبدية، وبالتالي العودة ثانية إلى بداية الدورة (السرمدية)، وإغلاق الدورة الزمنية الكونية الوجودية.

أما التاريخ حسب تصور كل ديانة على حدة، فالزارادشتية تتصور أن التاريخ يمر عبر ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة الخير الكامل.

والمرحلة الثانية: مرحلة امتزاج (وصراع) الخير بالشر، وهنا تقع على الإنسان مسؤولية الوقوف مع الخير في صراعه ضد الشر، ويمثل الوعي الإنساني، والأخلاقية الطيبة السلاح الإنساني في هذا الصراع.

والمرحلة الثالثة هي مرحلة انتصار الخير على الشر، والتي تبتدئ بميلاد زارادشت، وستنتهي على يد المخلص (شاو شنياط)، الذي سيولد من امرأة عذراء بعد استحمامها في إحدى البحيرات، حيث سيدخل إلى رحمها نطاف زرادشت (مخلص يولد بشكل عجائبي ولكن يبقى من جنس بشري)، والذي سيقوم بقيادة المعركة الكونية الوجودية ضد الشيطان، وحينها سوف تقوم القيامة، ويقوم الأموات من سباتهم وتهبط عليهم من السماء أرواحهم، ويقدّمون إلى يوم الحساب، حيث يقوم الملائكة بتسليط نار على الأرض تذيب المعادن

وتحيلها إلى نهر من المعادن السائلة، ويُدفع البشر للمرور في هذا النهر، فمن كان من الأشرار فيأخذه التيار إلى الجحيم، ومن كان من الأخيار فيعبره الإنسان كما لو أنه نهر من الحليب، ويصل إلى عالم النعيم الخالد الأبدي، وهناك تصور زارادشتي أكثر وضوحا يذهب إلى أن البشر حين يموتون فإنهم يمرون فوق الصراط المستقيم، فمن كان شريرا يضيق به الصراط فيسقط إلى الجحيم، ومن كان من الأخيار فيمر فوق الصراط المستقيم نحو النعيم، وينتظر الجميع يوم الحشر العظيم، وهو اليوم الذي ينفتح فيه التاريخ على الأبد.

وحسب الزرادشتية التثنوية، فإن قوتين ستتنازعان على التسيد على التاريخ هما قوتا الخير والشر، حيث تذهب الزرادشتية إلى أن ثلاثة آلاف عام ستمضي، وستكون السيطرة فيها لإله الخير، والنور أهورامزدا (هرمز)، ومن ثم يعقبها ثلاثة آلاف عام أخرى تخضع فيها الأرض لإرادة مشتركة، أو تحت قيادة موزعة بين إله الخير والنور أهورامزدا، وإله الشر والظلام أهريمان، ومن ثم يعقبها ثلاثة آلاف عام سوف يفقد فيها أهريمان قدرته المدمرة، وتخضع الحياة لإرادة إله الخير والنور أهورامزدا فحسب.

أما بالنسبة للديانة اليهودية، فبعد أن تعرض اليهود إلى أزمة تاريخية مريرة في مرحلة السبي البابلي، وبعد أن احتكوا بالتصورات الدينية في بابل، فقد تأثرت اليهودية بالتصور الزارادشتي للتاريخ، وبخاصة بعد أن هودّت اليهودية المخلّص الزارادشتي، إلا أن التصور اليهودي للزمكان، وللتاريخ، اختلف عن التصور الزارادشتي، في المرحلة الأخيرة من التاريخ، فالتصور الزارادشتي يقوم على فكرة نهاية التاريخ، مع انفتاح الزمن المادي على الأبد، أما التصور اليهودي فيقوم على فكرة أن التاريخ سينتهي عندما يتسيد شعب الله المختار على البشرية، وهو ما دعاه الباحث فراس سواح بالتاريخ الدينامي المنقوص، كما أن فراس سواح يذهب أيضا إلى أن الإيديولوجيا الدينية اليهودية، بشكل عام، هي زارادشتية تقف بالمقلوب، فالرب العالمي في الديانة الزارادشتية، يصبح الرب يهوه المتخصص بشعبه المختار فقط في الديانة اليهودية، والتاريخ الزارادشتي الذي ينتهي بانتصار قوى النور على قوى الظلام، ويحل السلام الشامل العادل العالمي، ينتهي في اليهودية بانتصار اليهود على كل الشعوب الأخرى.

ولكن الزرادشتية برزت بشكل أقوى، وأكثر وضوحا في العقيدة الألفية المسيحية البروتستانتية، بعد أن قامت بتهويد التصور الزارادشتي، ثم مسّحته، بحيث أن التصور المسيحي للتاريخ أصبح يتألف أيضا من ثلاث مراحل، كما هو الأمر بالنسبة للزارادشتية، مع بعض الفوارق البسيطة:

المرحلة الأولى هي مرحلة سرمدية.

ثم تأتي مرحلة الخلق الكوزموغونية.

ثم تأتي فترة فاصلة أو وسيطة ما بين مرحلة الخلق، ومرحلة نهاية التاريخ، وهي تمتد منذ سقوط آدم من الجنة، ومن ثم مجيء المسيح الأول، وفي تلك الفترة يتسيد فيها الشيطان، ولكن في نهاية تلك الفترة يأتي ابن الله ثانية (المجيء الثاني للمسيح) ويقود معركة (هارمجدون) التي ستنشب بين أبناء النور، أو الخير، وبين أبناء الظلام أو الشر، والتي ستنهي بانتصار أبناء النور، وستؤدي إلى تسّيد اليهود على العالمين، وإحلال السلام العالمي الذي يكون قادته السياسيين، والدينيين هم اليهود.

ثم يبدأ التاريخ مرحلته الثالثة المنفتحة على الأبد (نهاية التاريخ)، وحينها سيدخل الرب يهوه إلى أورشليم السماوية، ولكن هذا لن يتم ما لم يدخل الرب يهوه أولا أورشليم الأرضية، أي لا يمكن أن ينتهي التاريخ دون أن تتشكل دولة إسرائيل التي ستقوم ببناء الهيكل الثالث.

وحسب ما سبق، فإن جميع التصورات الدينية للتاريخ ترتبط بالمخلّص، أو المفرّج، الذي سيجيء في آخر الأيام فيعيد التوازن، والنظام الذي أفسده الشيطان، ومن تبعه من أبناء، وعناصر الشر، وقد تواردت النبوءة بمجيء المخلص في أكثر من حضارة، وفي أكثر من مكان، وكانت حماها تتعالى كلما مرت الجماعة (أو حتى الفرد) بواقع مرٍّ نسبة لما كان، وكانت أبسط تصورات المخلّص في عقائد الشرق الأدنى القديم، هي تصورات العقائد البعثية البعلية، كما انتشرت عقيدة المخلص في مصر في عهد مبكر، وقد جاء في بردية لايدن الشهيرة {.. لقد أصبح حكام البلاد يأتون أمورا ما كان ينبغي حدوثها. وخربت الأرض وليس من يأسى عليها.. يتحدث الجميع عن الحب.. لكن الخير اختفى. تناقصت الأرض لكن الموظفين تزايدوا. جفت الأرض لكن الضرائب تضخمت. قلت المحاصيل لكن المكيال اتسع. واقتحم القبليون أرض مصر. وما من مدافع ليسمع أو يجيب. تباعد (رع) عن الناس وأصبح الكليل صاحب سلاح. وصار القوم يبجلون من كان يبجلهم... لكن سيأتي ملك من الجنوب اسمه أميني. ابن سيدة من تاستي. طفل خن نخن. سوف يتسلم التاج الأبيض. ويلبس الأحمر. والناس في زمنه. سيكونون سعداء. إن ابن أحدهم. سيخلد اسمه إلى أبد الآبدين. أما الذين تآمروا على الشر ودبروا الفتنة. فقد أخرسوا أفواههم خوفا منه. والآسيويون سيقتلون بسيفه. واللوبيون سيحرقون بلهيبه. والثوار سيستسلمون لنصائحه. والعصاة لبطشه. سيخضع المتمردون للصل الذي على جبينه. وسيقيم أسوار الحاكم. حتى لا يتمكن الآسيويون من غزو مصر. وسيستجدون الماء حسب طريقتهم المعروفة. حتى ترده أنعامهم. وستعود العدالة إلى مكانها. وينفي. الظلم من الأرض. فليبتهج من سيراها. من سيكون من نصيبه التعاون مع ذلك الآتي}.

وقد عرف من المخلصين كرشنا، وبوذا (٦٢٤ - ٥٤٤ق.م) في الهند، ومثرا وزارادشت وشاوشنياط عند الفرس، وأوزريس عند الفراعنة، وكويرينيوس عند الرومان، وبروموثيوس عند القوقاز، وباخوس عند اليونان.

وقد تبنت الديانة اليهودية فكرة نهاية التاريخ، وفكرة مجيء المخلص، وقد برز هذا المفهوم لدى اليهود في الوقت الذي كانت الآفاق تنبئ عن نهاية قريبة لتاريخهم في أورشليم في المرحلة الانتقالية ما بين القرن السابع، والسادس قبل الميلاد، ونهض أنبياء اليهود في محاولة يائسة لإنقاذ تاريخهم من التهدم على النهاية التي أصبحت قاب قوسين أو أدنى، ولما أدركوا استحالة إيقاف نهاية تاريخهم، فقد ذهبوا - كعزاء لهم - إلى أن المستقبل سيأتي لهم ببداية جديدة في يوم الرب على يد المسيح.

والمسيح بالنسبة لليهود هو تعبير مجازي عن الملك، أو على وجه التحديد تعبير مجازي يشير إلى المخلص، وقد كان الكهنة اليهود يمسحون رأس الملك بالزيت عند تبؤئه العرش، ويسمونه مسيح الرب، وكان أول مسيح يهودي هو الملك داود، ولكن عقيدة المخلص بشكل عام قد سبقت عقيدة المسيح، فاسم موسى، ومن بعده يشوع، يحملان دلالات

خلاصية، ولكن لا يمكن اعتبارهما مسيحين، بل مخلصين، وكان أول مخلص ومسيح هو الملك داود.

وكان اليهود، بعد أن تم سبيهم، وانتهى مُلكهم، ومَلكهم، قد بدؤوا يحلمون بمجيء مسيح (أي ملك) يترأس عليهم، ويعيدهم إلى أورشليم ويملك عليهم هناك، وحسب اعتقادي فإن عقيدة المخلص اليهودية في مرحلة ما قبل السبي البابلي كانت تقوم على تصور عودة مسيح اليهودية الأول الملك داود، أي أن المسيح المنتظر هو المجيء الثاني للمسيح داود، وهذه العقيدة هي تهويد لعقيدة الخلاص في العقيدة الكنعانية، والتي يتجلى فيها فعل الخلاص بشكل دوري زمني لا تاريخي، ومن هنا فقد كان كل الملوك الذين أتوا بعد داود يُعَدّون مسحاء، وقد تطور المفهوم اليهودي للمخلص بعد السبي البابلي، حيث تأثر اليهود بالتصورات الدينية الزرادشتية، بحيث أصبح المسيح اليهودي تاريخي، أي بمعنى أنه يشكل جزءا مهما من التاريخ اليهودي، الذي يشكل حجر الزاوية في التاريخ الإنساني، وبذلك لا يمكن للتاريخ أن يتمسرح في الزمكان دون وجود المسيح، والذي سيجيء في نهاية التاريخ، ويحقق الخلاص الأبدي، وكانت اليهودية على لسان أنبيائها الذين أتوا في محيط مرحلة السبي البابلي قد خلطوا بين ثلاثة مفاهيم للمرحلة الثالثة من التاريخ، هي:

يوم الرب، وهو اليوم الذي يحقق فيه الرب عقابه الدنيوي، وهو جزء من (آخر الأيام).

وآخر الأيام، وهي الأيام التي تسبق مباشرة نهاية التاريخ.

ونهاية التاريخ وهو يوم الثواب بالنسبة لليهود، ويوم العقاب (أي يوم الرب) بالنسبة لباقي الشعوب من غير اليهود، حيث سيعيد الرب يهوه شعبه المختار إلى المركز التاريخي والجغرافي، وقد تمايزت تلك المفاهيم الثلاثة بعد أن تم سبي اليهود إلى بابل، أي بعد تحقّق نهاية التاريخ اليهودي في تلك الآونة.

ومن هنا فإن يوم الرب ليس له دلالة تاريخية، فهو يشير فقط إلى اليوم الذي سيفرض فيه الرب عقابه، وبذلك فإن يوم الرب بالنسبة لليهود هو اليوم الذي سيقوم فيه بنفيهم من مملكتهم، ومن تاريخهم، ويوم الرب هذا سوف يجيء أيضا على الأمم الأخرى في نهاية التاريخ، حيث سينتقم فيه الرب من كل أعداء اليهود، ومن كل من شَمت بهم من الشعوب عندما تم تدمير مملكتهم يهوذا، وتم سبيهم إلى بابل، وبذلك فإن يوم الرب هنا سيكون في مقدمة نهاية التاريخ، وهو الذي سيأتي في نهايته المسيح اليهودي الذي سيعيد اليهود من الشتات إلى الأرض المقدسة.

ولأن اليهود رفضوا هزيمتهم التاريخية المذلة على يد البابليين، فقد ذهبوا إلى أن التاريخ هو سيناريو كان قد كتبه الرب في السماء، وبطل، ومحور، ومركز هذا التاريخ هو شعب الله المختار، ولأن هذا الشعب لم يذعن لنص الاتفاق الذي كان قد أبرم بينه وبين الرب، فقد قرر الرب أن يعاقب شعبه المختار، كما كان قد فعل مع آدم من قبل، ومع قوم نوح أيضا، ولذا كان لا بد من تأديب هذا الشعب المختار بطرده، أو بنفيه، وبشكل مؤقت، من أرضه المقدسة إلى أرض الآخرين، ولا بد أيضا من نفيه المؤقت من تاريخه المقدس إلى الهامش التاريخي للشعوب الأخرى.

وكان الرب يهوه، قبل أن يقوم بنفي شعبه المختار من الجغرافيا، ومن التاريخ، قد انبرى لسانه وهو يهددهم، ويتوعدهم، ويؤنبهم على نكرانهم للعهد، ويتوعدهم بأن يوم الرب قريب «ويل للمستريحين في صهيون والمطمئنين في جبل السامرة نقباء أول الأمم.» عاموس ٦.

وفي يوم الرب «تمسك سبع نساء برجل واحد في ذلك اليوم قائلات نأكل خبزنا ونلبس ثيابنا. ليدع فقط اسمك علينا. انزع عارنا» إشعيا ٣.

«هكذا قال الرب.. أسلمهم للقلق والشر في جميع ممالك الأرض عارا ومثلا وهزأة ولعنة في جميع المواضع التي أطردهم إليها. وأرسل عليهم السيف والجوع والوبأ حتى يفنوا عن وجه الأرض التي أعطيتهم وآباءهم إياها» إرميا ٢٤.

ولكن تهديداته ذهبت دون أن تجد أذنا تسمعها، وعقلا يدركها:

«إلى فعل الرب لا ينظرون وعمل يديه لا يرون» إشعيا ٥.

«وقال لي: يا ابن آدم هل رأيت ما هم عاملون. الرجاسات العظيمة التي بيت إسرائيل عاملها هنا لإبعادي عن مقدسي.. أرأيت يا ابن آدم ما تفعله شيوخ بيت إسرائيل في الظلام كل واحد في مخادع تصاويره.. هناك نسوة جالسات يبكين.. وهم ساجدون للشمس نحو الشرق» حزقيال.

«هكذا قال رب الجنود. من أجل أنكم لم تسمعوا لكلامي هأنذا أرسل فآخذ كل عشائر الشمال يقول الرب وإلى نبوخذ راصر عبدي ملك بابل وآتي بهم على هذه الأرض وعلى كل سكانها وعلى كل هذه الشعوب حواليها فأحرمهم وأجعلهم دهشا وصفيرا وخربا أبدية» إرميا٢٥.

«ها غضبي وغيظي ينسكبان على هذا الموضع على الناس وعلى البهائم وعلى شجر الحقل وعلى ثمر الأرض فيتقدان ولا ينطفئان» إرميا ٧.

«هكذا أكسر هذا الشعب وهذه المدينة كما يكسر وعاء الفخاري بحيث لا يمكن جبره بعد» إرميا ١٩.

«مدن قدسك صارت برية. صهيون صارت برية أورشليم موحشة. بيت قدسنا وجمالنا حيث سبّحك آباؤنا قد صار حريق نار وكل مشتهياتنا صارت خرابا» إشعيا ٦٤.

ولكن الرب الذي عاقب شعبه المختار في (يوم الرب)، وبعد أن يخمد غيضه وغضبه عليه، وبعد أن يكون قد أخذ الشعب جزاءه، وبعد أن يكون قد أدرك شعب الله المختار ذنبه، وأعلن توبته، فإن الرب سيعقد مع شعبه المختار للمرة الثانية اتفاقا جديدا يكون وسيطه المسيح، حيث يتعهد فيه الشعب بالعودة إلى عبادة الرب دون سواه من الآلهة الأخرى، وحينها سيقوم

الرب بإرسال مسيحه في آخر الأيام ليعيد الشعب من عتمة الجحيم في الغياب، إلى نور النعيم في الحضور، وسيجمعهم، وينقلهم من على هامش التاريخ، إلى مركزه في الفردوس المفقود:

«هكذا قال الرب صوت سمع في الرامة نوح بكاء مر. راحيل تبكي على أولادها وتأبى أن تتعزى عن أولادها لأنهم ليسوا بموجودين. هكذا قال الرب سمعا سمعت أفرايم ينتحب. أدبتني فتأدبت كعجل غير مروّض. توبتني فأتوب لأنك أنت الرب إلهي. لأني بعد رجوعي ندمت وبعد تعلمي صفقت على فخذي» إرميا ٣١.

«ها أيام تأتي يقول الرب وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهدا جديدا. ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدي فرفضتهم يقول الرب» إرميا.

«ثم صارت كلمة الرب إلى إرميا قائلة أما ترى ما تكلم به هذا الشعب قائلا إن العشيرتين اللتين اختارهما الرب قد رفضهما. فقد احتقروا شعبي حتى لا يكونوا بعد أمة أمامهم. هكذا قال الرب إن كنت لم أجعل عهدي مع النهار والليل فرائض السموات والأرض. فإني أرفض نسل يعقوب وداود عبدي فلا آخذ من نسله حكاما لنسل إبراهيم وإسحق ويعقوب لأني أرد سبيهم وأرحمهم» إرميا.

«ويكون في ذلك اليوم أن بقية إسرائيل والناجين من بيت يعقوب لا يعودون يتوكلون أيضا على ضاربهم بل يتوكلون على الرب» إرميا.

«هكذا أنظر إلى سبي يهوذا الذي أرسلته من هذا الموضع إلى أرض الكلدانيين للخير. وأجعل عينيّ عليهم للخير وأرجعهم إلى هذه الأرض وأبنيهم ولا أهدمهم وأغرسهم ولا أقلعهم. وأعطيهم قلبا ليعرفوني أني أنا الرب فيكونوا لي شعبا وأنا أكون لهم إلها لأنهم يرجعون بكل قلبهم وكالتين الرديء الذي لا يؤكل من رداءته.» إرميا ٢٤.

«ها أنذا آتي بهم من أرض الشمال وأجمعهم من أطراف الأرض. بينهم الأعمى والأعرج الحبلى والماخض معا. جمع عظيم يرجع إلى هنا. بالبكاء يأتون وبالتضرعات أقودهم. أسيرهم إلى أنهار ماء في طريق مستقيمة لا يعثرون فيها. لأني صرت لإسرائيل أبا وأفرايم هو بكري» إرميا ٣١.

وهكذا، وحسب التصور اليهودي، فإن غاية التاريخ، كما كان الرب يهوه قد وضع مساره منذ بداية التاريخ، هو وصول شعب الرب المقدس في نهاية التاريخ إلى مركز التاريخ، دون أن يكون للإنسان أي دور فاعل في صناعته، أما دور الإنسان، ودور الأمم والشعوب الأخرى على تعاقبها، فلا يتعدى كونها دور كومبارس في مسرحة شعب الله المختار في التاريخ، وليس من أحد يستطيع الخروج قيد أنملة عن النص المعد مسبقا، والذي سيتصاعد حتى يتم الوصول إلى يوم الرب (نهاية التاريخ) الذي سيجيء فيه المسيح الذي سيتربع على عرش العالم والتاريخ في قصره الأبدي (مملكة إسرائيل)، والذي سيكون فيه اليهود سدنة هذا القصر وكهنة العالم.

في آخر الأيام أو نهاية التاريخ، ستتلاشى كل أنواع الصراعات، بل وكل أنواع الثنائيات، وستُحل جميع المشكلات الإنسانية، وسيمسك الإنسان بزمام ظروفه، وبيئته، وتاريخه، أي بمعنى ما فإن الإنسان سيتحول إلى إله، وهذا التصور بخطوطه العريضة هو الذي تبنته المسيحية، إلا أن اليهودية تتصور أن يوم الرب هذا سيتحقق داخل التاريخ في (الحياة الدنيا)، وفيه سيصل الإنسان اليهودي تحديدا، إلى أرض صهيون المقدسة (الفردوس

المفقود) فحسب، ويمثل هذا اليوم يوم السبت التاريخي، أي بمعنى أن هذا اليوم يمثل عودةً إلى يوم التكوين السابع (يوم السبت اللاهوتي) الذي استراح فيه الرب، بعد أن كان قد خلق الوجود في أيام التكوين الستة، والتصور اليهودي ليوم الرب، يختلف في كثير من تصوراته عن مثيله يوم القيامة حسب التصور الإسلامي التوحيدي والذي يقع خارج التاريخ (في الحياة الأخرى)، والذي يتم فيه تصفية الحسابات لجميع الشعوب والأمم دون استثناء، ومن ثم يعود التاريخ إلى حالته السكونية، بعودة الإنسان إلى الجنة التي كان قد طرد منها، ويعتقد رجال الدين اليهود أن التاريخ اليهودي كان قد توقف سنة ٧٠ للميلاد، كما توقف بالوقت نفسه تاريخ فلسطين أيضا، لأن التاريخ اللاهوتي لا يمكن له أن يتمسرح إلا من خلال اقتران الرب المقدس، مع الشعب المقدس، على أرض صهيون المقدسة، وبذلك، فحتى يعود التاريخ إلى حراكيته ثانية، لا بد من عودة اليهود (الشعب المقدس)، إلى فلسطين (الأرض المقدسة) وبذلك، وفي اللحظة التي يعود فيها التاريخ إلى حراكيته ثانية يصل إلى نهايته السبتية.

ويعتقد البعض من المسيحيين الأوربيين العلمانيين، وبعض رجال الدين المتنورين، أن التاريخ ابتدأ بالمرحلة اللاهوتية، ثم جاءت بعدها المرحلة الميتافيزيقية، ثم المرحلة العقلية العلمانية التي نعيش الآن فيها، وأن هذه العلمانية ستقوم، كما لو أنها المسيح المنتظر، بحل جميع المشكلات والمعاناة الإنسانية، وتحقق نهاية التاريخ على الأرض، أي بالعودة إلى بداية التاريخ ثانية، وانتهاء دورة من دورات التاريخ.

أما بالنسبة ليوم الرب الذي يشكل المقدمة، لآخر الأيام، التي ستنتهي بنهاية التاريخ، فإن الرب يهوه، وحسب التصور اليهودي، سيقوم أولا بتأديب شعبه المختار بهذا اليوم، ثم في نهاية التاريخ سيقوم بيوم آخر للرب بتأديب كل الممالك التي كانت قد تسلطت على شعبه المختار، ويسيّد عليها مختاره إسرائيل:

«اضربوا بالبوق في صهيون صوّتوا في جبل قدسي. ليرتعد جميع سكان الأرض لأن يوم الرب قادم لأنه قريب. يوم ظلام يوم غيم وضباب مثل الفجر ممتدا على الجبال» يوئيل ٢.

«ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقتني بقية شعبه.. فيزول حسد أفرايم وينقرض المضايقون من يهوذا. أفرايم لا يحسد يهوذا ويهوذا لا يضايق أفرايم.. وينقضّان على أكتاف الفلسطينيين غربا وينهبون بني المشرق معا. يكون على أدوم وموآب امتداد يدهما وبنو عمون في طاعتهما. ويبيد الرب لسان بحر مصر ويهز يده على النهر بقوة ريحه ويضربه إلى سبع سواق ويجيز فيها بالأحذية. وتكون سكة لبقية شعبه التي بقيت من أشور كما كان لإسرائيل يوم صعوده من أرض مصر.

هوذا يوم الرب قادم قاسيا بسخط وحمو غضب ليجعل الأرض خرابا ويبيد منها خطاتها.. ويكونون كضبي طريد وكغنم بلا من يجمعها. يلتفتون كل واحد إلى شعبه ويهربون كل واحد إلى أرضه. كل من وجد يطعن وكل من انحاش يسقط بالسيف. وتحطم أطفالهم أمام عيونهم وتنهب بيوتهم وتفضح نساؤهم.

ها أنا أهيج عليهم الماديين.. فتحطم القسي الفتيان ولا يرحمون ثمرة البطن. لا تشفق عيونهم على الأولاد. وتصير بابل بهاء الممالك وزينة فخر الكلدانيين كتقليب الله سدوم وعمورة» إشعيا.

«في ذلك اليوم أجعل أمراء يهوذا كمصباح نار بين الحطب وكمشعل نار بين الحزم فيأكلون كل الشعوب حولهم عن اليمين وعن اليسار فتثبت أورشليم أيضا في مكانها بأورشليم. ويخلص الرب خيام يهوذا أولا لكيلا يتعاظم افتخار بيت داود وافتخار سكان أورشليم على يهوذا» زكريا ١٢.

«قريب يوم الرب العظيم قريب وسريع جدا.. يا كنعانُ أرضَ الفلسطينيين أني أخربك بلا ساكن. ويكون ساحل البحر مرعى بآبار للرعاة وحظائر للغنم. ويكون الساحل لبقية بيت يهوذا عليه يرعون. في بيوت أشقلون عند المساء يربضون لأن الرب إلههم يتعهدهم ويرد سبيهم» صفنيا ٢.

«ويكون في ذلك اليوم يقول الرب صوت صراخ من باب السمك وولولة من القسم الثاني وكسرٌ عظيم من الآكام. ولولو يا سكان مكتيش لأن كل شعب كنعان باد» صفنيا.

«وحي من جهة بلاد العرب. في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الدادانيين. هاتوا ماء لملاقاة العشان يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزه فإنهم من أمام السيوف قد هربوا. من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب. فإنه هكذا قال السيد في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار».

«لأن الرب سيرحم يعقوب ويختار أيضا إسرائيل ويريحهم في أرضهم فتقترن بهم الغرباء وينضمون إلى بيت يعقوب ويمتلكهم بيت إسرائيل في أرض الرب عبيدا وإماء ويسبون الذين سبوهم ويتسلطون على ظالميهم».

«في ذلك اليوم أجعل أمراء يهوذا كمصباح نار بين الحطب وكمشعل نار بين الحزم فيأكلون كل الشعوب حولهم عن اليمين وعن اليسار فتثبت أورشليم أيضا في مكانها بأورشليم» زكريا ١٢.

«فيخرج الرب ويحارب تلك الأمم كما في يوم حربه يوم القتال. وتقف قدماه في ذلك اليوم على جبل الزيتون الذي قدام أورشليم من الشرق فينشق جبل الزيتون من وسطه نحو الشرق ونحو الغرب واديا عظيما جدا وينتقل نصف الجبل نحو الشمال ونصفه نحو الجنوب.. ويكون في ذلك اليوم أنه لا يكون نور. الدراري تنقبض. ويكون يوم واحد معروف للرب. لا نهار ولا ليل بل يحدث أنه في وقت المساء يكون نور. ويكون في ذلك اليوم أن مياها حية تخرج من أورشليم نصفها إلى البحر الشرقي ونصفها إلى البحر الغربي.. ويكون الرب ملكا على كل الأرض» زكريا ١٤.

«عندما أرد سبي يهوذا وأورشليم أجمع كل الأمم وأنزلهم إلى وادي يهوشافاط وأحاكمهم هناك» يوئيل ٣.

«ويجمع بنو يهوذا وبنو إسرائيل معا ويجعلون لأنفسهم رأسا واحدا ويصعدون من الأرض لأن يوم يزرعيل عظيم» هوشع.

«ترنمي يا ابنة صهيون اهتف يا إسرائيل افرحي وابتهجي بكل قلبك يا ابنة أورشليم. قد نزع الرب الأقضية عليك أزال عدوّك. مَلِكُ إسرائيل الرب في وسطك» صفنيا ٣.

وفي ذلك اليوم، إضافة إلى أن الرب سوف يقوم بمحاسبة الشعوب حسب ما أساءت إلى شعبه المختار، فإنه سيقوم أيضا بتصفية حسابه القديم مع التنين الذي كان قد دخل معه في صراع في بداية الوجود، ولم يتم حسمه آنذاك، ولكن هذا الصراع الأعظم سينشب في معركة أخيرة ينتصر فيه الرب بشكل نهائي على التنين، وهو على ما يفهم منه يكون في

مقدمة آخر الأيام، وهذا الانتصار سيتحقق على يد المسيح اليهودي، الذي اختلف الأنبياء في نسبه، فالبعض نسبه إلى سلالة داود، والبعض نسبه إلى أفرايم، والبعض ادعى أن هناك مسيحين سيجيئان:

الأول مسيح من نسل أفرايم وهو الذي سيقود المعارك في يوم الرب، ويعيد اليهود من شتاتهم.

والثاني من نسل داود وهو الذي سيحقق السلام العالمي الذي سيكون فيه اليهود كهنة الشعوب، وأورشليم عاصمة العالم.

وبمعنى ما، وكما ذهبت سابقا، فإن هذين المسيحين ليسا سوى عودة للملك التوراتي داود الذي صنع مملكة إسرائيل من خلال حروبه، والملك سليمان الذي أحل السلام على كل الشعوب.

كما أن الأنبياء اليهود اختلفوا أيضا في شمولية مهمته الخلاصية، فالبعض جعل من المسيح مخلصا لبني إسرائيل دون سواهم من الشعوب، والبعض اعتبروه خلاصا للبشرية من معاناتها، والوصول إلى الفردوس المفقود:

«ويخرج قضيب من جذع يسى وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب. ولذته تكون في مخافة الرب فلا يقضي بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه. بل يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض ويضرب الأرض بقضيب فمه ويميت المنافق بنفخة شفتيه. ويكون البر منطقة متنيه والأمانة منطقة حقويه

فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل والمسمن معا وصبي صغير يسوقها. والبقرة والدبة ترعيان. تربض أولادهما معا والأسد كالبقر يأكل تبنا. ويلعب الرضيع على سرب الصل ويمد الفطيم يده على حجر الأفعوان. لا يسوؤون ولا يفسدون في كل جبل قدسي لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر. ويكون في ذلك اليوم أن أصل يسى القائم راية للشعوب إياه تطلب الأمم ويكون محله مجدا

ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقتني بقية شعبه التي بقيت من أشور ومن مصر ومن فتروس ومن كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن حماة ومن الجزائر. ويرفع راية للأمم ويجمع منفيي إسرائيل ويضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض.» إشعيا.

«فيسكن في البرية الحق والعدل في البستان يقيم. ويكون صنع العدل سلاما وعمل العدل سكونا وطمأنينة إلى الأبد. ويسكن شعبي في مسكن السلام وفي مساكن مطمئنة وفي محلات أمينة» إشعيا ٣٢.

«حينئذ تتفتح عيون العمي وآذان الصم تتفتح. حينئذ يقفز الأعرج كالأيل ويترنم لسان الأخرس لأنه قد انفجرت في البرية مياه وأنهار في القفر. ويصير السراب أجما والمعطشة ينابيع ماء. في مسكن الذئاب في مربضها دار للقصب والبردي. وتكون هناك سكة وطريق يقال لها الطريق المقدسة. لا يعبر فيها نجس بل هي لهم. من سلك الطريق حتى الجهال لا يضل. لا يكون هناك أسد وحش مفترس لا يصعد إليها. لا يوجد هناك. بل يسلك المفديون فيها» إشعيا ٣٥.

«هوذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرّت به نفسي. وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم. لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة لا يُطفئ. إلى الأمان يخرج الحق. لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته».

«هكذا يقول الله الرب خالق السموات وناشرها باسط الأرض ونتائجها.. أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدا للشعب ونورا للأمم لتفتح عيون العمي لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة» إشعيا.

«يولد لنا ولد ونعطي ابنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبا مشيرا إلها قديرا أبا أبديا رئيس السلام. لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد» إشعيا ٩.

«ما أجمل على الجبال قدمي المبشر المخبر بالسلام المبشر بالخير المخبر بالخلاص القائل لصهيون قد ملك إلهك» إشعيا ٥٢

«هوذا ملكك يأتي إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان.. ويتكلم بالسلام للأمم وسلطانه من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصي الأرض» زكريا ٩.

«وفي ذلك الزمان أنبت لداود غصن البر فيجري عدلا وبرا في الأرض. في تلك الأيام يخلص يهوذا وتسكن أورشليم آمنة وهذا ما تتسمى به الرب برنا» إرميا ٣٣.

«ها أيام تأتي يقول الرب ولا يقال حي هو الرب الذي أصعد بني إسرائيل من أرض مصر، بل حي هو الرب الذي أصعد بني إسرائيل من أرض الشمال ومن جميع الأراضي التي طردهم إليها. فأرجعهم إلى أرضهم التي أعطيت آباءهم إياها» إرميا ١٦.

«يسرعون كعصفور من مصر وكحمامة من أرض أشور فأسكنهم في بيوتهم يقول الرب» هوشع ١١.

«وأرد سبي شعبي إسرائيل فيبنون مدنا خربة ويسكنون ويغرسون كروما ويشربون خمرها ويصنعون جنات ويأكلون أثمارها. وأغرسهم في أرضهم ولن يقلعوا بعد من أرضهم التي أعطيتهم» عاموس ٩.

«هوذا على الجبال قدما مبشر مناد بالسلام عيّدي يا يهوذا أعيادك أوفي نذورك فإنه لا يعود يعبر فيك أيضا المهلك» ناحوم ١.

«أما أنت يا بيت لحم أفراته وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطا على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل. لذلك يسلّمهم إلى حينما تكون قد ولدت والدة ثم ترجع بقية أخوته إلى بني إسرائيل. ويقف ويرعى بقدرة

الرب بعظمة اسم الرب إلهه ويثبتون. لأنه الآن يتعظم إلى أقاصي الأرض. ويكون هذا سلاما» ميخا.

وهكذا سينزل الرب (المسيح) من السماء إلى الأرض، ويتحد مع شعبه المختار بحيث يشكلون، من خلال اتحادهم، كتلة واحدة لها تاريخ واحد، ويصبح اليهود جزءاً من الرب، كما هو الرب جزء تكويني في الجماعات اليهودية، وبذلك ينزل المطلق ويتحد مع المزمن، والثابت مع المتحول، وحينها لا يكون حاجة لوسطاء (أنبياء) بين الرب، والشعب، أو بين السماء، والأرض، لأن طرفي الحوار يتحدان في خطاب واحد أبدي، يتمثل في المسيح الذي يلد من زواج السماء بالأرض «ها عذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانوئيل» إشعيا.

وعلى الرغم من أن اليهود الذين كانوا قد تم سبيهم إلى بابل، رجعوا إلى الأرض المقدسة في العهد الفارسي، وعادوا إلى حظيرة التاريخ، إلى أن التحديات التي تعرّض لها تاريخهم في العهد اليوناني، ومن بعده الروماني، أعادت هواجسهم، ومخاوفهم التاريخية إلى ما كانت عليه في مرحلة ما قبل السبي، وعادوا يلهجون بأفكار الخلاص ثانية، وقد حصل تطور مفاهيمي على يوم الرب، واندخل مع مفاهيمهم السابقة في مرحلة السبي، وأدخلوا نبوءاتهم على نبوءات أنبياء السبي، واندخل مفهوم يوم الرب الجمعي، على يوم الرب الفردي.

وعلى الرغم من أن إحدى مراحل تطور اليهودية البدائية كانت في مصر، إلا أن الديانة اليهودية لم تأخذ من الديانة المصرية العقيدة الأخروية، فقد كان الموت بالنسبة لليهودية عبارة عن هبوط إلى عتمة أبدية ليس لها أي ماهية، إلا أن اليهود بعد احتكاكهم بالعقائد الرافدية، وبالفلسفات الهيلينية وتشكل المذاهب الدينية (الفريسية - الصدوقية - الأسينية..) بدأ يتشكل لديهم مفاهيم غامضة عن العالم الآخر، والعقائد الرئيوية، حيث انتشرت في تلك الفترة، وتحديدا في سياق ثورة المكابي، وعلى يد الفريسيين تحديدا أفكار خلاصية فردية من خلال النشور (البعث)، ففي سياق التمردات الثورية اليهودية ضد سلطة روما، كان القتلى يتساقطون دفاعا عن اليهودية (أرضا، وعقيدة) وفي تلك الفترة بدأت تتبلور مجموعة تصورات عن ومصير من يسقط قتيلا وهو يدافع عن مملكة، وكلمة الرب، فلم يعد غموض عالم الأموات مقبولا أمام هذه المستجدات، واستجابة لضرورة إيجاد تصور واضح عن مصير من يسقط قتيلا في المعركة، ومع تأثيرات فارسية كانت اليهودية قد اطلعت عليها، وتأثيرات فلسفية هلنستية، برزت فكرة قيامة الأموات من قبورهم، وعودتهم ليقفوا أمام الرب بكامل هيئتهم البشرية، فيحاسبهم الرب حسب عملهم، وقد اعتبر، وأعلن المكابي أن من يموت في الحرب سيكون شهيدا، وسيكون له الحياة الأبدية، وكان حزقيال في مرحلة السبي قد وضع تصورا بدائيا عن قيامة الأموات «أيتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الرب. هكذا قال السيد الرب لهذه العظام. ها أنذا أدخل فيكم روحا فتحيون. وأضع عليكم عصبا وأكسبكم لحما وأبسط عليكم جلدا وأجعل فيكم روحا فتحيون وتعلمون أني أنا الرب.. ها أنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي وآتي بكم إلى أرض إسرائيل» حزقيال ٣٧.

وكذلك جاء في سفر دانيال «في ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك ويكون زمان ضيق لم تكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت وفي ذلك الوقت ينجّي شعبك كل من يوجد في السفر. وكثير من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى

الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي. والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور» دانيال ١٢.

وإذا كان يوم الخلاص سوف يأتي ويتحقق في الزمان، وكي يصبح هذا اليوم تاريخيا، فلا بد من أن يكون له بعده المكاني بحيث يعود المسبيون إلى الأرض المقدسة، أو إلى الفردوس المفقود الذي يمثل السرة لأبنائه الذين على الرغم من أنهم شردوا منه قسرا، فقد أبقوا على حبلهم السري مربوطا فيه، كي يبقى يمدهم بالروح الضرورية لاستمرار وجودهم الجسدي، كما يمثل قبلة، وشمالا لبوصلة التائهين، المتفككين، المشردين في بقاع الأرض، حيث سيسعون فرادى، وجماعات للعودة إلى هذا الفردوس، حيث سيجد كل فرد فيه كيانه وكينونته، وهذا المكان (المدينة - الهيكل)، هو الموقع الوحيد الذي من خلاله يستطيع فيه الإنسان أن يكون على اتصال مباشر مع السماء دون أي وسيط.

وقد حاولت اليهودية أن تصور أورشليم التي، وحسب التوراة، بنيت بالذهب والفضة، وكأنها قطع من عناصر سماوية (النجوم، والقمر)، وهذه المدينة السماوية (المقدسة) والتي تم تدميرها من قبل اليد الأرضية (المدنسة)، سوف يقوم الرب بإعادة بنائها على الأرض، أو سيقوم بإنزالها من السماء مبنية، ويضعها في نفس المكان المقدس الذي سيهبط إليه الرب ليسكن بين شعبه، وهو نفس المكان الذي يستطيع فيه الإنسان أن يصعد منه إلى السماء، أي أنه الممر الوحيد المفتوح بين السماء، والأرض، وهو بالوقت نفسه مكان مادي أرضي، كما أنه مكان روحي سماوي، أو هو الفردوس السماوي الذي سيكون على الأرض.

وقد حاول ملك اليهودية الشهير هيرودوس الكبير أن يبني الهيكل المقدس بطريقة أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، وأقرب إلى السماء منه إلى الأرض ببعده المادي، أما من حيث وظيفته الروحية فقد أصبح الهيكل المقدس أقرب إلى المؤسسة المالية، منه إلى بيت الرب، وأصبح هذا الهيكل رمزا، وهوية لمملكة يهودا، يقف جنبا إلى جنب مع خصوصية الديانة اليهودية في مملكة اليهودية، ولم يمض زمن طويل على موت هيرودوس حتى بدأت المملكة تتضخم بالاحتقانات الداخلية، منبئة بانفجار وشيك، كما تلبدت الأجواء ثانية بالأحداث، والتغيرات، وأخذت جيوش روما تبدوا على الآفاق منبئة بقرب نهاية التاريخ اليهودي الوشيكة، وفي سياق هذه الأجواء استعرت فكرة مجيء المسيح المخلص، وتعدد المسحاء، وتشكلت المسيحية بشكل هامشي في اليهودية، ومن ثم انتقلت من هناك لتجوب، وتنتشر في العالم القديم، دون أن يكون لها أثر واضح ومهم في مملكة اليهودية، بل إن اليهودية تعرفت على المسيحية في الأقاليم الرومانية المتعددة بعد دمار أورشليم والشتات اليهودي، ولم تعترف اليهودية بالديانة، أو المذهب المسيحي، لأن اليهودية كانت تنظر إلى المسيحية على أنها خروج عن الخصوصية اليهودية، إلى العمومية الإنسانية، وكان لموقف الكهنوت اليهودي تأثير كبير على رأي اليهود، وكان الكهنوت اليهودي قد رفض، وحارب انتشار المسيحية، خاصة عند اليهود، لأن المسيحية همّشت المسيحية دور الكهنة اليهود،

كما حاولت تخليص الشعب اليهودي من اضطهاد الشعائر، والضرائب الثقيلة التي كان يجب أن يدفعها لرجال الدين، لأنها اعتمدت على الإيمان الروحي، على حساب التقيد بالطقوس والشعائر، ولأن المسيحية كانت تقوم باسترقاق، وتمسيح الكثير من اليهود الجدد، من الذين كانت الجماعات الفريسية، التي تشتت في العالم الروماني، قامت بتهويدهم، وكان هؤلاء المتهودون الجدد يتمسحون، على اعتبار أن المسيحية مذهب من اليهودية، وهو المذهب الأكثر مطاوعة على تقبّل الأثنيات والعروق والثقافات على اختلافها، وذات الطقوس والشعائر البسيطة، والمجانية، والتي تلائم الفقراء، والمضطهدين في العالم الروماني، وبالتالي أخذت المسيحية تنتشر بشكل متسارع، بينما اليهودية قبعت بانتظار مجيء مسيحها.

وقد مرت عدة أزمنة استعرت فيها الأفكار الخلاصية (ومجيء المسيح اليهودي)، بخاصة تلك التي تتميز بحالة من الاضطرابات الشعوبية، ونقص الأمن، وكان أول من أطلق اليهود عليه صفة المسيح هم الملوك اليهود، ويُعَدّ الملك التوراتي داود هو المسيح الأول، ومن بعده جاء ملوك يهوذا، وكان أول شخص أطلقوا عليه صفة المسيح من غير اليهود، هو العاهل الفارسي قورش الذي خلّص الشعب اليهودي من السبي البابلي، ثم أطلق اليهود لقب المسيح على زربابل، الذي ساهم في عودة اليهود من السبي إلى البلاد المقدسة.

أما أهم الفترات التاريخية، التي تمخضت وولدت عدداً كبيراً من المسحاء، فكانت في القرن الأول للميلاد حيث كانت الأحداث التاريخية في العالم الروماني ملتهبة، والأقاليم في حالة من الجيشان، وكانت ولاية اليهودية على وجه الخصوص كأتون يغلي، أو كامرأة في حالة مخاض مستعص، في الوقت التي كانت فيه القوات الرومانية تتكاثر كغيوم ثقيلة على الآفاق، وكان كل شيء ينبئ بالوصول إلى الخراب، وفي تلك الفترة تكاثرت الشائعات، والقصص الخرافية بشكل لم يكن له مثيل، وقد ظهر في تلك الفترة عدد من المسحاء، وكان أشهرهم المسيح عيسى الذي ظهر في فلسطين، وقام أتباعه بتأسيس العقيدة المسيحية في مرحلتها الشفوية، كما أن تاريخ ولادة المسيح الإنجيلي أصبح تاريخا عالميا، وحسب اعتقادي فإن العقيدة المسيحية الإنجيلية بدأت بالتشكل، والتبلور اعتبارا من سنة ٦٠ للميلاد على وجه التحديد، وفي سنة ٧٠ للميلاد، وفي الوقت التي كانت فيه أورشليم تدك على يد الرومان، خرج الرسل ليبشروا، كرد فعل، وكإفراز حضاري ديني نفسي ثقافي على الهزيمة، بأن المسيح قد جاء، وجميع هؤلاء المنهزمين على أرض مملكة يهوذا المنهارة، قد عوضهم الرب بملكوت السماء.

كما ادعى يسوع بن حنانيا انه المسيح، وان يوم الرب على وشك المجيء، كما ادعى شخص يدعى ثيوداس في سنة ٤٤ للميلاد بأنه المسيح وحاول أن يعبر مع مريديه نهر الأردن دون أن تبتل أقدامهم، إلا أن الحاكم الروماني قام بقتله، وشتت أتباعه.

ثم ظهر (المسيح) باركوخبا الذي قاد ثورة ١٣٥ للميلاد ضد الرومان، وفي القرن الخامس للميلاد ظهر في كريت شخصا ادعى أنه المسيح، وقد قاد أتباعه نحو البحر، بعد أن أقنعهم أنه سيعبر بهم البحر مشيا على الأقدام الحافية إلى الأرض المقدسة، وقد ألقوا بأنفسهم إلى الأمواج، ومات منهم الكثير.

وفي منطقة الدلتا في مصر في بداية القرن الثاني للميلاد ادعى معلم الغنوصية فالنتين أنه المسيح، كما أُعتبر باسيليدس معلم الغنوصية الثاني أنه المسيح أيضا، وكان يبشر بالله لا بالرب يهوه، كما ادعى ماني الذي ولد في منطقة ماني سنة ٢١٦ للميلاد أنه الفارقليط (المزّي) الذي بشّر به المسيح يسوع الناصري، كما ادعى أنه جاء ليتمم رسالة المسيح، وادعى أنه خاتم الأنبياء، والمانوية تذهب إلى أن الحرب الأخيرة بين الشر والخير تبدأ بحدوث كوارث متعددة على الأرض، ثم يظهر ميترا المزيف (المسيح الدجال)، وميترا الحقيقي والذي سيقود الحرب التي تنتهي بانتصار الخير على الشر، ويتحقق ملكوت الرب الذي يتربع عليه يسوع المسيح لمدة قصيرة، ومن ثم تقوم القيامة فتنطبق السماء، ويموت الجميع حيث تفرز أرواحهم حسب أعمالهم بين النعيم والجحيم.

كما ذهب مبشر يهودي مسيحي يدعى عاديا من أورشليم إلى أرمينيا وادعى أن المسيح هو كائن بشري من أم وأب بشريين، ولكن الله قام بتبنيه، واعتبره ابنا له.

أما في شبه الجزيرة العربية فقد حاول اليهود أن يجعلوا من الرسول محمد مسيحا، وهم على ما يبدو من أطلقوا عليه صفة (المصطفى)، كما حاولوا أن يجعلوا من علي بن أبي طالب أيضا مسيحا في سياق الصراع على خلافة المسلمين، ومن هنا فقد ساهمت اليهودية في تكوين عقيدة المهدي المنتظر عند المذهب الشيعي.

وفي القرن السابع الميلادي ادعى أحد اليهود في مدينة الفلوجة العراقية أنه المسيح المنتظر، وقد قام وأتباعه بالهجوم على الكنائس المسيحية، وقتلوا عمدة المدينة، وقد تم القبض عليه وأعدم.

وفي سوريا ادعى سيرينوس في سنة ٧٢٠ للميلاد أنه المسيح، ووعد اليهود بأنه سيعيدهم إلى بلادهم المقدسة بعد أن يطرد المسلمين منها، وقد التف حوله الكثير من الأتباع، كما التحق به الكثير من يهود الأندلس، وقد عدّل قليلا في الشعائر اليهودية لا سيما بالنسبة للطعام المقدس، وأوامر الزواج والطلاق، ولما مثل أمام الخليفة، ادعى أنه كان يمزح وهو غير جاد في طرحه، ولما سلّمه الخليفة للطائفة اليهودية قاموا بقتله.

وفي بلاد فارس في بداية القرن الثامن للميلاد ادعى أبو عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني في عهد مروان بن محمد (٧٤٤ - ٧٥٠م) آخر خليفة أموي، أنه أحد خمسة مبعوثين للمسيح، وأعلن التمرد على الخليفة، وقد التف حوله قرابة عشرة آلاف مقاتل، ولم

يقدر الحكم الأموي على فرض سلطته عليهم، ولكن الخليفة العباسي (السفاح) استطاع أن يشتت جموعهم إلى غير رجعة، وقد قام أتباعه بتدبيج أساطير كثيرة عنه.

وفي القرن الثاني عشر الميلادي ظهر في أقصى شمال كردستان رجل خزري يدعى سليمان دوجي بعث بخطابات متعددة إلى يهود العالم دعاهم فيها إلى العودة إلى فلسطين، وبعد موته تابع ابنه مناحيم رسالة والده، بعد أن غير اسمه إلى (داود الروي)، وادعى أنه المسيح المنتظر، وأن والده كان النبي إيليا، ووعد اليهود بإعادتهم إلى فلسطين، وقد سرت شائعة حينها بأن من يريد العودة إلى الأرض المقدسة عليه أن يصعد إلى سطح المنزل، لأنه الملائكة ستجيء، وتحمل جوا إلى أورشليم كل من يريد العودة، وقد باع، من آمن به، منازلهم بأبخس الأثمان، وقد تبين فيما بعد أن وراء هذه الإشاعة كان هناك محتالان، وقد سرت شائعات أسطورية كثيرة بعد أن تم قتله على يد والد زوجته بطلب من الجماعات اليهودية.

أما أهم وأشهر من ادعى أنه المسيح فكان شبتاي زيفي (١٦٢٦ - ١٦٧٦م) في مدينة أزمير التركية، وكان من أتباع الطائفة القبالية، وكان يلقب نفسه ابن داود وسليمان، ولكن بتصادمه مع السلطة العثمانية تعرّض للملاحقة حيث تم القبض عليه، وأودع السجن، ولكن بدل أن يتناقص عدد أتباعه كانوا يزدادون، وكان شأنه يزداد عظمة، وقد استطاعت السلطة العثمانية من خلال وساطات متعددة أن تقنعه بالعدول عن نشر أفكاره، وتصوراته، بل وأقنعته باعتناق الإسلام، حيث سمّى نفسه (محمد أفندي)، ولكنه استمر يبشر بدعوته سرا، وقد تم نفيه إلى بولونيا حيث مات فيها سنة ١٦٧٦م، وكذلك الأمر بالنسبة لجاكوب فرانك (١٧٢٤ - ١٧٩٤م) الذي ظهر في بولونيا، وكان بذخه الشديد محط إعجاب ودهشة في تلك المرحلة، كما ظهر مسيح بين يهود الفلاشا أثناء حكم الإمبراطور تيودور الثاني، وقد قاد هذا المسيح من آمن به في سنة ١٨٦٢ للميلاد في رحلة ليعود بهم مشيا على الأقدام إلى أرض الميعاد، إلا أن أكثرهم مات على الطريق من الجوع، والعطش، والمرض.

كما ادعى ميرزا حسين علي الملقب بالبهاء (١٨١٧ - ١٨٩٢م) أنه المسيح المنتظر وهو الذي ولد في بلاد فارس ثم حطت به الرحال في عكا، كما ادعى أيضا الألوهية (رب الجنود)، وهو الأمر الذي جعل مناوئيه يربطون دعوته الدينية، بالديانة اليهودية، لا سيما وأنه دعا إلى عودة اليهود إلى فلسطين، وقد جاء في كتاب الأقداس {هذا يوم فاز فيه الكليم بأنوار القديم، وشرب زلال الوصل من هذا القدح الذي به سجرت البحور قل تالله الحق، إن الطور يطوف حول مطلع الظهور، والروح ينادي من في الملكوت، هلموا وتعالوا يا أبناء الغرور، هذا يوم أسرع كرم الله شوقا للقائه، وصاح لصهيون قد أتى الوعد، وظهر ما هو مكتوب في ألواح الله المتعالي العزيز المحبوب} وأعلن البهاء توحيد الأديان في العقيدة البهائية، كما أنه نادى بتوحيد اللغات، وتابع ابنه عباس أفندي الملقب بعبد البهاء (١٨٤٤ - ١٩٢١م) هذا النداء قائلا {فانتظروا الآن تأتي طوائف اليهود إلى الأرض المقدسة، ويمتلكون الأراضي والقرى، ويسكنون بها، ويزداد تدريجيا إلى أن تصير فلسطين جميعا وطنا لهم}.

أما آخر المسحاء الذين ظهروا في الوقت المعاصر فكان قد ظهر في سياق حرب الخليج الثانية، حيث ادعى أحد الحاخامات اليهود أنه المسيح القادم، وقد بدأ الإعلام ببث صوره، ولكن، وعلى ما يبدو، وتحاشيا لإيجاد حالة إرباك بين المسيحية واليهودية، تم

إزاحة الموضوع إعلاميا، والجدير ذكره أن بعض الأحبار من المتدينين اليهود في فلسطين رفضوا استلام الكمامات الواقية من سمية الأسلحة الكيماوية التي قامت الحكومة الإسرائيلية بتوزيعها على مواطنيها في حرب الخليج الثانية، تحسبا من إطلاق صواريخ عراقية ذات رؤوس كيمائية على إسرائيل، لأن هؤلاء الأحبار يعتقدون أن الله سيحمي اليهود من تأثير تلك الأسلحة، وأن تلك الحرب ستأتي بالمسيح الحقيقي أيضا.

أما حرب الخليج الثالثة، فإني أعتقد أن أحد حوامل هذه الحرب هو الحامل الديني العقيدي للمسيحية البروتستانتية، لا سيما منها العقيدة الألفية، وعقيدة نهاية التاريخ، ومجيء المسيح المنتظر.

وعلى الرغم من أن أكثر من ادعوا أنهم المسيح كانوا من اليهود، إلا أن اليهود التقليدين، وخاصة منهم الأحبار، رفضوا كل أشكال المسحاء الذين ظهروا على مر التاريخ، لأن عقيدة انتظار مجيء المخلص تشكّل ركنا أساسيا في العقيدة اليهودية، واستمرار تلك العقيدة قائم على استمرار انتظار مجيء المسيح، وهذا يعني أن مجيئه التاريخي هو إنهاء لعقيدته، وبالتالي يتهدم ركن أساسي في العقيدة اليهودية، أي بمعنى ما، إن اليهودية هي حالة انتظار للمسيح الذي لن يجيء، ولذا فهي لم تعترف بمسيحية المسيح عيسى ابن مريم، كما أنها لم تعترف بالعقيدة المسيحية الإنجيلية التي كانت قد خرجت من اليهودية، وذهبت بعيدا عنها، وأريد هنا التنويه إلى أن ما أقصده بالمسيحية الإنجيلية، أي العقيدة المسيحية كما أتت في الإنجيل، كتميز عن العقيدة المسيحية كما أتت في التوراة، ولا أقصد فيها المذهب الإنجيلي المسيحي بالذات.

والمسيحية الإنجيلية، كانت قد خرجت من المسيحية التوراتية، وقامت المسيحية الإنجيلية بإدخال تصورات زارادشتية رئيوية إلى معتقدها، بحيث طورت المسيحية الإنجيلية معتقد يوم الرب في المسيحية التوراتية، بتأثيرات زارادشتية، إلى العقيدة الألفية المسيحية الإنجيلية التي تتلخص بعودة المسيح الذي سيحل ملكا لمدة ألف عام، وسيحكم الأرض مع القديسين، وهي مرحلة انتقالية بين المرحلة التاريخية الأرضية، وحلول الملكوت السماوي الأبدي، ومن أهم التصورات التي كانت المسيحية قد بنت عليها عقيدتها الألفية، التصور الذي جاء في رؤيا يوحنا اللاهوتي، وما جاء في إنجيل يوحنا وهو يودع أتباعه ومريديه «أما الآن فإني منطلق إلى من أرسلني.. إن في انطلاقي لخيرا لكم، فإن لم أنطلق لا يأتكم المحامي، وأما إذا انطلقت فإني أرسله إليكم. ومتى جاء فإنه يفحم العالم بشأن الخطيئة والبر والدينونة».

أما في رؤيا يوحنا اللاهوتي فقد جاء «ورأيت ملاكا نازلا من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده. فقبض على التنين الحية القديمة الذي هو إبليس والشيطان وقيده ألف سنة وطرحه في الهاوية وأغلق عليه وختم عليه لكي لا يضل الأمم في ما بعد حتى تتم الألف السنة وبعد ذلك لا بد أن يحل زمانا يسيرا.

ورأيت عروشا فجلسوا عليها وأعطوا حكما ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يقبلوا السمة على جباههم وعلى أيديهم فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة. وأما بقية الأموات فلم تعش حتى تتم الألف سنة. هذه هي القيامة الأولى. هؤلاء ليس للموت الثاني سلطان عليهم بل سيكونون كهنة لله والمسيح وسيملكون معه ألف سنة.

ثم متى تمت الألف السنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض جوج وماجوج ليجمعهم للحرب الذين عددهم مثل رمل البحر. فصعدوا على عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة فنزلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم. وإبليس الذي كان يضلهم طرح في بحيرة النار والكبريت حيث الوحش والنبي الكذاب وسيعذبون نهارا وليلا إلى أبد الآبدين.

ثم رأيت عرشا عظيما أبيض والجالس عليه الذي من وجهه هربت الأرض والسماء ولم يوجد لهما موضع. ورأيت الأموات صغارا وكبارا واقفين أمام الله» رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢٠.

«رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها. وسمعت صوتا عظيما من السماء قائلا هوذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون شعبا والله نفسه يكون معهم إلها لهم. وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم والموت لا يكون في ما بعد ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع في ما بعد لأن الأمور الأولى قد مضت.. أنا هو الألف والياء البداية والنهاية.. من يغلب يرث كل شيء وأكون له إلها وهو يكون لي ابنا. وأما الخائفون وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة وعبدة الأوثان وجميع الكذبة فنصيبهم في البحيرة المتقدة بنار وكبريت الذي هو الموت الثاني» رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢١.

وحسب لكتانتييوس (٢٥٠ - ٣٣٠م) فإن المسيح الدجال سوف يهبط، وسوف يقوم بمحاصرة الجبل الذي سيلتجئ إليه أبناء النور، وبعد أن يتضرعوا إلى الرب، سيبعث لهم المسيح المخلص من السماء مع جيش من الملائكة، وتكون حرب يُهزم فيها المسيح الدجال، وبذلك يحل السلام، ويقف في يوم الدينونة الأموات والأحياء أمام المسيح.

والعقيدة الألفية على الرغم من أنها تذهب إلى أن التاريخ سينتهي بالسلام، إلا أن هذا السلام، حسب تصورها، لن يتحقق إلا بالعبور فوق أنهار من الدماء، وجثث شعوب وأمم لن يبقى لها أثر، حتى أن المسيح الدجال ذاته سيصاب بالرعب، ويهرب نحو الشمال، ولكنه يعود ثانية إلى المعركة فيُهزم على يد جيش الرب المكون من الملائكة الذين سيلقون بالمسيح الدجال إلى الجحيم الأبدي، أما مريديه فسيكونون عبيدا لشعب الله الذين سيعيشون دون زمن إلى الأبد.

ولقد قاد استعار العقيدة الألفية في بداية الألف الثالثة للميلاد إلى أن يساهم بدرجة ما المذهب المسيحي البروتستانتي في دفع الولايات المتحدة الأمريكية إلى أن تقوم بعمليات الإحماء من أجل صناعة التاريخ الديني، أو على وجه التحديد دفعت بالإدارة الأمريكية إلى أن تضع سينوغرافيا إخراجية للسيناريو التاريخي الديني الرئيوي البروتستانتي للوصول إلى معركة هارمجدون الكونية.

وقد بدأت الولايات المتحدة الأمريكية، واستنادا إلى عدة مصالح، وعدة حوامل، وفي عدة أماكن، وعلى شكل سلسلة مترابطة، حربها الكونية ضد الإسلام والمسلمين، أو المور حسب التعبير الصليبي، أو ضد الإرهاب، أو محور الشر، أو ضد أبناء الظلام، وقد ابتدأتها بغزو أفغانستان، ثم باحتلال العراق، أو بابل العاهرة، أو بلاد الغول حسب التعبير الصليبي، وهذه السلسلة من الحروب ستتمخض عن مجيء المسيح المنتظر، والذي سيكون قائدا لمعركة هارمجدون، ومن هنا نلاحظ أن خطابات جورج بوش كانت تكّرس بعض

المصطلحات ذات الخلفية الدينية من مثل محور الشر، ومحور الخير، كما أن وسائل الإعلام الغربية حاولت أن تستفيد من بعض الصور، واللقطات التلفزيونية لجماعات تتدرب وهي تلبس الأردية السوداء، وتصورهم، إيحائيا، كما لو أنهم أبناء الظلام، كما أنها تحاول أن توحي ذهنيا بأن رئيس تنظيم القاعدة أسامة بن لادن، والرئيس العراقي السابق صدام حسين كما لو أنهما تشكيلات من شخصية المسيح الدجال.

والعقيدة الألفية تجلس الآن، مع عدد من القيادات المتنوعة الأغراض، والأهداف، في العربة الأولى من عربات قطار التاريخ الذي تحاول الولايات المتحدة الأمريكية الاستفراد بمقوده.

وهذه العقيدة الألفية تُعَدّ أن مدينة أورشليم (القدس) هي مركز الكرة الأرضية، بل ومركز الكون، فمن جبل الزيتون قام السيد المسيح، وإليه سيعود، وبمقتضى هذا التصور فإن هذه العقيدة كانت قد قادت، وجنّدت الأمم الأوربية في حروبها الصليبية الأولى في بداية الألفية الميلادية الثانية، على الرغم من أن المسلمين لم يكونوا يحرّمون على المسيحيين، ولا حتى على اليهود قط الحج إلى مدينة أورشليم، ولكن حسب رأي الأصولية الدينية المسيحية فلا يجوز إبقاء القدس تحت حكم المسلمين (أبناء الظلام، أو المسحاء الدجالين) للوصول إلى الخلاص الأبدي، وقد قام سنة ١٠٩٥ للميلاد البابا أوربان الثاني بالدعوة إلى تحرير أورشليم: {إن الفرسان النبلاء يتكاسلون ويتشاجرون، في حين يحتل الوثنيون الأماكن المسيحية المقدسة ويتوطنون فيها}.

كما خطب إلى الجماهير قائلا {يا شعب الفرنجة، يا شعب شمال الألب أنتم بدلالة أعمالكم الكثيرة شعب الله المحبوب والمختار.. إن شعب إمبراطورية فارس، الغريب، الكافر، مهزوز الطباع الذي لا يركن بال له، احتل أراضي المسيحيين وإفراغها من أهلها بالموت والنهب والحرق}.

وقد أكدت الكنيسة أن أضمن طريق للخلاص هو الموت من أجل أورشليم، ومن أجل مجد المسيح، إنها (الحرب العادلة، أو الحرب المقدسة) لأنها ضد الوثنيين الذين يجب إخضاعهم لسلطة الكنيسة، وانطلقت الحملة الصليبية، وقد وصلت إلى أورشليم (القدس) سنة ١٠٩٩م، وبدل أن تأتي هذه القوات المسيحية بالسلام إلى المنطقة، فقد وصلوا إليها وهم يغوصون ببحيرات الدم، وفوق جثث من قاوم، ومن سالم، من (أبناء العاهرات، وأخلاف قايين، والوثنيين من أبناء الظلام).

والآن، ومع بداية الألفية الثالثة عادت نفس الشعارات للبروز ثانية، ولكن بطريقة مغلّفة بأسماء جديدة متخفية كي تبعد منها محمولها الديني، ومن أهم هذه الشعارات شعار محور الشر، ومحور الخير، وبدل أن كان حراس الهيكل هم الجماعات الأكثر شهرة في الحرب الصليبية الأولى، فإن جماعة شهود يهوه، وجماعة المبشرين باليوم السابع، والذين يعدّون قرابة ستة ملايين في الولايات المتحدة الأمريكية، وسواها من المذاهب الدينية البروتستانتية الجديدة هي التي تبث الآن الروح الدينية في الحرب الكونية الثالثة، وهذه الفرق البروتستانتية تذهب إلى أن نهاية التاريخ قادمة، ولا بد من حرب كونية ينتقم فيها الرب لشعبه المختار، من الشعوب والأمم الأخرى، والتي يجب أن يُسلّم قادتهم إلى الملائكة لمعاقبتهم (أو إلى محكمة لاهاي)، وهذه الحرب تُعَدّ ضرورية من أجل الوصول إلى الفردوس الأرضي، ولذا، ومن أجل أن تتحقق الإرادة الإلهية، فلا ضير من أن يحيّد أبناء

النـور، وجنـود حـراس الهيكل، وشـهود يهـوه بعـض القيم الأخلاقيـة فـي حـربهم ضـد أبنـاء الظلام.